القاريء مبدعاً

غالب هلسا

يبدأ (كامو) روايته (الغريب) هكذا :

«اليوم ماتت أمي ، أو ربما ماتت الأمس . لا أعرف . تلقيت برقية من مأوى العجزة تقول : توفيت والدتك . الدفن غداً . لك أصدق مشاعر الأسى . ومثل هذا القول لا يفيد بشيء . ربما ماتت يوم أمس» .

وعندما طلب إجازة من رب العمل تصوّر (ميرسو) أنه غضب ، فقال : إن موت أمه ليس غلطته . وعندما سئُل عن السبب الذي جعله يطلق الرصاص على البدوي ، قال إن ذلك بسبب ضوء الشمس . فكيف نصف رؤية (ميرسو) للعالم؟ إنها رؤية تلغي المنظور أو البعد الثالث من الصورة من العالم من حوله ، فيصبح ذا بعدين . أي انها تفتقد بعدها الاجتماعي ، بعد التقاليد والقيم والمفاهيم التي صاغت البشر ومؤسساتهم الاجتماعية التي تشكل بمجموعها الرؤية الكلية للذات وللآخرين .

يطلق الوجوديون على هذه الحالة (حالة (ميرسو) في «الغريب» وحالة (روكانتان) في «الغثيان») صفة العبثية المضحكة . لقد شاعت ترجمة Absurd بالعبث ، في الأدبيات العربية . ولكن الكلمة الأصلية تحتمل المعنيين . إنها الحالة التي يفقد فيها الإنسان ثقته بكل المسلمات الاجتماعية ، ويكون عاجزاً ، في الوقت ذاته ، عن إيجاد قيمه الخاصة والتزامه النابع من ذاته .

يرى (كامو) أن هنالك خيارين أمام إنسان كهذا : الإنتحار ، أو بناء التزام نابع من ذاته . وقد اختار (تيسير سبول) ، مع الأسف ، طريق الانتحار .

ومأساة (تيسير) هي مأساة الشباب العربي ، الذي تم إدخاله في دائرة شريرة ومفرغة . ولكنها صادفت في (تيسير) حالماً كبيراً ذا حساسية مرهفة فكانت الفاجعة .

إن الشباب العربي ، و (تيسير) بشكل خاص ، قد تخلّى عن مسلّمات

مجتمع متخلف ، واتخذ بدلاً منها مسلمات الديماغوجية السياسية ، اليقين والامتثال نفسيمها . قال له الديماغوجيون : «إن الأهداف الكبرى للعرب : الوحدة ، والديموقراطية في أعلى أشكالها ، والعدالة الاجتماعية والرفاه ، وسحق الأعداء ، سوف تتم بسرعة ودون جهد كبير»

من خلال هذه الديماغوجية ، بنى صورة جميلة لعالمه المقبل الذي سوف يتحقق بسرعة ودون جهد . والسمة الأساسية للديماغوجية أنها تبسيطية ، تغفل أو تجهل تعقيدات الواقع ، ومن ثم تقفز من فوقها . ورأى (تيسير) ، وشباب جيله ، أن الواقع لا يطيع حلمه ، فانساق إلى الرؤية العبثية المضحكة ، حيث فقد كل شيء معناه ، وأصبح مضحكاً .

كانت روايتي «الضحك» التي كتبتها قبل رواية «أنت منذ اليوم» بفترة طويلة ، تعبر عن الأزمة ذاتها . ففيها تتفتت رؤية كاملة إ لى شظايا عبثية .

إذاً ، هذه هي المشكلة . . . الفاجعة : أمام عالم شديد التعقيد ، لا تحدد مساراته الأحلام الوردية والنوايا الطيبة لشباب لم يرغبوا في رؤية تعقيده ، بل يتحدد سيره بمصالح ونوايا واستراتيجيات الداخل والخارج المتقاطعة والمتعارضة . . . أمام عالم كهذا وقف (تيسير) ـ ونحن كلنا ـ يعلن خيبة أمله لأن أمته لم تطع أحلامه ، ولأن الزعماء الديماغوجيين ، أنصاف الأميين ، لم يفوا بوعودهم . وهكذا أصبح كل شيء مضحكاً ، بلا معنى . عالم بلا منظور ، كل ما يدور فيه عشوائي ، لا يندرج في سياق رؤية أو نظرية موحدة . فكيف عبر (تيسير) في روايته : «أنت منذ اليوم» عن هذه الرؤية الفاجعة؟

رواية «أنت منذ اليوم» تعكس في بنيتها تهشم الرؤية المتكاملة : لوحات قصيرة متتالية ، لا يربطها زمان أو مكان أو حدث واحد . تتاليها يأخذ شكل القصيدة الجاهلية ، حيث يتم الترابط بين الأجزاء من خلال التداعي . فتصير الصورة ، أو مشاعر اللحظة ، صوراً ومشاعر تخضع لعملية التداعي هذه . وهذه الرواية بذلك تشكل خروجاً عن نمط الكتابة العربية السائد .

وللتداعي بين المشاهد دينامية خاصة . فما يعاش في اللحظة الحاضرة ، أي ما هو عياني ومباشر ، يسستدعي ذكرى قديمة ، تستدعي بدورها مشاعر

وأحاسيس قديمة وجديدة . أي أن مجرى الوعي لا يتم على مستوى واحد ، بل على مستويات متعددة ، فهو الحاضر المباشر ، وهو تاريخنا الشخصي . وهو ، أيضاً ما احتفظت به الذاكرة من حكايات وأحداث .

إن الرابط بين مستويات التداعي ، عند (تيسير) ، ينبثق من عناصر المفارقة ، والتناقض ، والانفعال . فالعياني يستدعي نقيضه ، أو ما يشكّل مفارقة معه ، أو يستثير إحساساً مماثلاً ، ولكنه قديم . يعني هذا أن الرواية تعتمد اللحظة الحية ، المعاشة حاضراً عبر تداعيات تنفتح على أكثر من مستوى .

ولا تقتصر هذه الدينامية على العلاقة بين المشاهد ، بل تقوم أيضاً على العلاقات بين العناصر المكوّنة للمشهد . وعلينا أن نتأمل جيداً هذه العلاقات ـ التي سوف نسميها تقنيات ـ لأنها أهم ما قدم (تيسير) في تاريخ إبداعه الموجز والواعد .

سوف نبدأ بتقنية سوف نطلق عليها اسم (السخرية من الذات) . ولتسهيل الحديث سوف نورد اقتباساً من الرواية . كان على الراوي (عربي) أن يسكن مع شاب غريب الأطوار لمدة يومين ، يرحل بعدهما الشاب ويترك الحجرة (لعربي) يصعد الدرج ويقدمه السمسار إلى المجنون «أسمر ، أصلع الرأس ، مع أنه شاب :

ـ الأخ من أين؟

سألني ، أجبت :

ـ بدوي .

فهش مرحباً :

ـ الله يحييكم البدو . فيكم أصالة .

شكرته وأخبرته أن الأصالة معدومة لدينا كما لدى الآخرين . وفهم أنني أتواضع فحسب» .

إن المؤلف ، هنا ، لا يتقمص شخصية الراوي . فالراوي جزء من اللحظة ، والمؤلف يستشرفها . رغم ذلك هنالك السخرية من الذات التي يستعملها الكاتب كثيراً .وهذا شديد الندرة في الرواية العربية . الروائي العربي ، عادة ، يلجأ لتبرير الذات وتزيينها عندما يختار شخصية تنطق باسمه . أي

أنه ـ في هذا ـ لا يستشرف اللحظة ولا الموقف ، ولكنه يغرق فيهما .

هنالك قول لـ (غاستون باشلار) : إن المبدع الحقيقي هو القادر على أن يسخر من ذاته . وأعتقد أن ما يعنيه (باشلار) هو ربط الإبداع الحقيقي بالموضوعية ، لأ السخرية من الذات تعني محاسبة الذات بتجرد ، وتعني أيضاً انفتاحاً على التجاوز .

دعونا نقرأ هذه الفقرة :

«قال ـ الراوي ـ للرفاق إنهم عانوا من نقص الكراسات العقائدية هناك وإنه يعترف بنقص ثقافته ويريد المزيد فطمأنوه وامتدحوا رغبته» .

نلاحظ أن الجملة خالية من النقط والفواصل التي استبدلت بها واو العطف . إنها بهذا تخرج عن إيقاع الكتابة الأدبية لتندرج في إيقاع الكلام اليومي . فالسخرية من الذات تنبثق ، أولاً ، من هذا الإيقاع الملهوف للعبارة ، وتأتي كذلك من رغبته الواضحة في استجداء المديح ، وقد تحققت هذه الرغبة «فطمأنوه وامتداحوا رغبته» .

والمصدر الثالث للسخرية من الذات ، هو أن الراوي يكشف نفاقه بالذات ؛ ففي حين يطالب بزيادة الكراسات العقائدية ، يقول لنفسه : «غير أن الكراسات الحزبية تضجره . لقد عرف بأنها متشابهة ، ولا معنى لتوزيعها كل أسبوع» .

ويستعمل المؤلف تقنية أخرى للسخرية من الآخرين ، تعتمد التقنية السابقة نفسها ، في وجه من وجوهها ، وهي تحويل الحديث المباشر إلى حديث غير مباشر . مثال ذلك وصفه لردود فعل الناس بعد انفكاك الوحدة بين مصر وسوريا :

«ففرح بعض الشعب وابتأس بعض الشعب ، وصمت كثيرون . غير أن المذيع طالب الناس ألا يحزنوا ، ووعد بوحدة صحيحة تقوم بين كل العرب . إلا أن هناك من لم يصدق ، فبكى ما استطاع البكاء ، ووجد أفراد لزموا الفراش مرضاً ، ثم أبلوا بعد يوم أو اثنين . . .» .

إن السخرية ، هنا ، تتولد من وضع سياق في القول بدلاً من سياق آخر . إن عبارة «ووجد أفراد لزموا الفراش ، ثم أبلوا بعد يوم أو اثنين . . . .» ذات نكهة جسدية خالصة ، يكون استعمالها في العادة للحديث عن إنسان

أرهقه العمل ، أو أصيب بالزكام ، فلزم الفراش يوماً أو يومين .

وهكذا فإن إحالة مشاعر وطنية إلى حالة جسدية خالصة تجعلها مضحكة . يشبه ذلك قولنا في وصف إنسان إنه كان شجاعاً وسميناً . إن اقتران الصفتين ، المادية والمعنوية ، يجعل قولنا مضحكاً .

نجد الشيء ذاته في فقرة أخرى :

«كف خطيب مسجد الجامعة عن مهاجمة الاشتراكيين والملحدين وكرّس خطبه لمهاجمة ملابس النساء القصيرة وأمور تخصيصية أخرى» .

فالانتقال من مسألة مهمة إلى أخرى تافهة يثير الضحك .

وأما تحويل الحديث المباشر إلى حديث غير مباشر فهو واضح في الاقتباسات السابقة . منها :

«غير أن المذيع طالب الناس ألا يحزنوا ، ووعد بوحدة صحيحة . . . إلا أن هناك من لم يصدق ، فبكى ما استطاع البكاء . . .» .

المذيع يصدر أوامر لا يمكن أن تطاع ؛ إذ طالب الناس ألا يحزنوا ، وكأن الحزن يأتي بأمر ، وينتهي بأمر مضاد . كما أنه يعطي وعوداً محددة بقيام وحدة صحيحة لم يكن قادراً على تحقيقها . إنه مضحك في أوامره ووعوده . وكذلك كانت استجابة المستعمين ، فبدلاً من اكتشاف حماقة المذيع انخرطوا في البكاء .

عندما نتأمل هذه العبارات جيداً نكتشف أن حماقة المذيع اتضحت لنا بسبب استعمال تقنية القول غير المباشر . يكفي أن نعيد هذه العبارات إلى أسلوب الخطاب المباشر ، أي نقل كلام المذيع كما قاله ، حتى يتضح لنا أنه فقد طابعه المضحك ، وأصبح مجرد مادة إعلامية عادية لا تثير السخرية .

إن استعمال المؤلف لهذه التقنية يتميز بالأصالة ، ويكشف عن حرية داخلية يمتاز بها الفنان الموهوب .

ولكن ، لماذا تثير هذه التقنية مثل هذا الأثر القوي على المتلقي؟

أعتقد أننا نجد الإجابة عند (باختين) . يرى (باختين) أن كل قول يفترض مستعماً . إن هذا الافتراض يحدد أسلوب صياغة القول ومضمونة . فما الذي فعله المؤلف من خلال هذه التقنية؟

لقد ألغى هذا الافتراض ، فبدا القول مجانياً .

ربما كان أهم التقنيات التي استخدمها (تيسير) عن موهبته ، هي تلك التي يستعملها في إقامة العلاقات بين المفردات التي تشكل المشهد . إن تلك المفردات غير محالة إلى بناء ذهني ـ إلا كإطار عام ـ ولا إلى الحيكة الروائية ، بل إلى ردود الفعل التلقائية . إن هذا يمنح الرواية طزاجة متجددة .

يقول الراوي في وصفه لامرأة عجوز كانت تحاول أن تعبر الجسر ، الذي دمرته الطائرات الإسرائيلية ، إلى الضفة الأخرى من النهر :

« . . . ورغم أنني سمعت دائماً من يتحدث عن صفرة الوجوه الخائفة ، فلم يحدث أن رأيت وجهاً صغيراً كهذا ، مصفراً تماماً كقشرة ليمونة ، دون رواء القشرة» .

إن المؤلف يقيم علاقة بين الذاكرة والواقعة العيانية : صفرة الوجه الخائف كصورة رسخت في الذاكرة وهذا الوجه الأصفر الصغير . إن لهذه العلاقة بين المعطيين وظيفة إبستمولوجية (معرفية) محددة ، فالمسلمات القائمة في وعينا (ولا وعينا) تحال إلى مضمونها الواقعي ليتم نفيها أو تأكيدها .

إن قاصاً مثل (يوسف ادريس) ، مثلاً ، يسعى إلى تحطيم قبْلياتنا ، أي أفكارنا الثابتة عن العالم . فصورة السفاح الرهيب في خيال الطفل تنهار عند رؤيته ـ كان ضئيل الحجم ـ كما تعاني مزيداً من الانهيار عندما يراه ينتحب لأن زوجته تخونه . هذا في روايته (الغريب) ، أما في روايته القصيرة (قاع المدينة) فنشاهد القاضي ، رمز الوقار والعدالة ، وقد تحوّل إلى مراهق يختلس النظرات إلى فخذي الخادمة ، وهي تمسح البلاط .

وهذه وظيفة إبستمولوجية لأنها تقودنا إلى جوهر المعرفة ؛ إذ هي ليست مجرد معلومات يُحشى بها الدماغ ، بل اقتراب تدريجي ومستمر نحو الحقيقة . يتم ذلك من خلال تحطيم أطر معرفية قديمة ، انسلخت عن معطياتها الواقعية ، وأصبحت مجرد أشكال فارغة ، واستحداث أطر جديدة انبثقت من الواقع لتوها . وبكلمة أخرى فإن المعرفة عملية متصلة ، مستمرة إلى ما لا نهاية ، تقوم على تحطيم القديم وبناء الجديد .

سوف نورد مثالاً آخر يكشف زاوية جديدة من هذه التقنية :

«على المصلبات ترتفع لافتات الدعاية الانتخابية :

(صوت الإسلام تحت قبة البرلمان ، انتخبوا . . .)
(إليكم مرشح العمال والفلاحين والكادحين . . .)
(من أجل القضاء على الإستعمار والصهيونية ، انتخبوا . . .)
رأيت ملابس النساء في الفترينات ، ألوانها عديدة وكلها معروضة بشكل خلاب» .

إننا هنا أمام انطباعات أولى : اللافتات الانتخابية ، وملابس النساء . حاسة البصر أقامت العلاقة بين الاثنين . التشابه بين الدعاية الصاخبة التهريجية للمرشحين وبين العرض الحسي (الخلاب) لملابس النساء يجمع بينهما .

«ورأيت مزيداً من اللافتات : (من أجل حياة برلمانية ديمقراطية سليمة ، انتخبوا . . .) ، وتذكرت (عائشة) . لقد اضعتها إلى الأبد» .

هنا يتبع المؤلف توارد خواطر الراوي ، فضياع الحياة البرلمانية ذكّره بضياع (عائشة) . نرى ذلك أيضاً في رد فعل الراوي على حديث الشاب غريب الأطوار :

«شرح لي أن الزعيم لم يجبن ، ولم ترجف خلجة واحدة فيه حين واجه الموت . وأفادني أن الزعيم أعدم نصف واقف على ركبتيه . فدهشت ، وكنت أعتقد أنهم يعدمون واقفين» .

ألا تذكرنا هذه الاستجابة برد فعل (ميرسو) في «الغريب» ، حين أهمل المسألة الأساسية ، وهي موت أمه ، وانشغل في تحديد اليوم الذي ماتت فيه . فما هي دلالة هذا الانحراف عن الموضوع الأساسي؟

في السيرة الذاتية لـ (فوركي) يشهد الطفل دفن والده . يراهم يهيلون التراب في القبر المفتوح فيأخذ في البكاء . وعندما يسألونه عن السبب ، يقول إنهم جرفوا الضفدعة مع التراب ، فدفنوها . فأنّبته جدته وقالت له إن عليه أن يبكي لموت أبيه ، لا لموت الضفدعة .

إن الطفل ، هنا ، هو صوتنا الواقعي الحقيقي ، لأنه يدلنا على الارتباط الواقعي لتداعياتنا . إن الضرورة التي تحتم الارتباط بين موت الزعيم والإعجاب بشجاعته ، وبين علم (ميرسو) بموت أمه والتفجع الفوري عليها ، وبين موت الأب وبكاء الطفل ، هي ضرورة قسرية يتم فيها إخضاع تداعيات

تلقائية للقفص الحقيقي للمواضعة الاجتماعية . فعبر هذه المواضعة ، يصبح ما يحدث واجب الحدوث ، أي أننا نلغي الحياة لمصلحة القيم الاجتماعية الصارمة . هكذا يصبح السؤال المطروح : هل الأدب يعبر عن التجربة كما عشناها ، أم هل تتم مصادرتها خضوعاً للطقوس الاجتماعية؟ إن تهمة قتل البدوي تجد رافداً لها في ملاحظات مدير مأوى العجزة حول سلوك (ميرسو) خلال جنازة أمه :

«ورداً على سؤال آخر ، قال إنه فوجئ بهدوئي يوم دفن والدتي ، ولقد سئل عما يعنيه بقول (هدوء) فنظر المدير إلى حذائه ، وقال إني لم أبد الرغبة في مشاهدة أمي ، ولم أبك مرة واحدة عليها ، وإنني ذهبت فوراً إثر دفنها ، دون أن أنحني بكل حواسي فوق قبرها .

وقال إن شيئاً آخر فاجأه أيضاً : فقد ذكر له أحد مستخدمي الجنّاز أنني كنت أجهل كم تبلغ أمي من العمر» . وتبلغ هذه الاتهامات حداً جعل المحامي يتساءل : «أخيراً ، نريد أن نعرف ما إذا كانت التهمة الموجهة إلى موكلي هي دفن أمه ، أم قتلُه رجلاً؟» ، فيصرخ المدعي العام : «نعم ، إنني أتهم هذا الرجل بأنه دفن أماً بقلب مجرم» .

فما هي خطيئة (ميرسو) الحقيقية؟

إنه وقد فقد القدرة على فهم المنظور ، أو بُعد المسلمات الاجتماعية ، قد خضع تماماً لتداعياته التلقائية ، وأصبح سلوكه نتاج رؤية يظهر فيها العالم وقد اتسم ببعدين . وهكذا نستطيع القول إن خطيئة (ميرسو) الكبرى التي تم تضخيمها إلى الحد الأقصى هي أنه لم يخضع تداعياته للمواضعة الاجتماعية .

عند (تيسير) ، في هذه الرواية ، لا تقيم تداعيات الراوي اعتباراً للمواضعة الاجتماعية ، ولا للمنطق الاجتماعي الذي نطلق عليه صفة الحس السليم . دعونا نقرأ هذه المقاطع من الرواية :

«ولاحظ عربي أن الخادمة التي يحشرونها تنام معه في الغرفة . . . كانت غائبة عن حسه لفترة . ثم عراها واكتشف أن جسدها الداخلي نظيف جداً ، فجاس خلاله بلذة . ويبتئس حين يرى أن وجهها ، بعد أن تضع ملابسها ، وسخ جداً . . .» .

«ولأن الخادمة ظلت وسخة الوجه ، أحب من بعيد صبية سمراء تغدو لمدرستها كل صباح في الميعاد نفسه . . .» .

هنا نجد الانطباعات الأولى للراوي ، التي حددها منطق تداعياته الخاص . إنها تحيلنا إلى تداعياتنا نحن ، حين لا يحكمها منطق المسلمات والطقوس ، أي عندما نكون أحراراً ، وبهذا المعنى نستطيع القول إن الأدب الجيد يحررنا . كيف؟ سنشرح ذلك بعد قليل .

والآن ، هل نستطيع أن نضع هده الملاحظات المتفرقة في سياق مفهومي منسجم؟ سنحاول ذلك .

نتبين أهمية التقنيات التي استخدمها (تيسير) في «أنت منذ اليوم» عندما نقيم رباطاً بينها وبين مسألتين : وظيفة الأدب ، وجماليته . إحدى وظائف الأدب ، وأخطرها ، أنه يجعلنا نعيش تجارب حياتنا اليومية مرة أخرى ، ولكن برؤية وفهم مختلفين . إن تجاربنا اليومية مستلبة لأنها محالة دوماً إلى إطار مرجعي متكلس ، فقد مضمونة الواقعي وأصبح شكلاً فارغاً ، وأعني بالإطار : المسلمات الاجتماعية . يكفي أن نطرح على المواضعة الاجتماعية سؤالاً منطقياً واحداً حتى يتكشف لنا فراغ هذا الشكل الميت . إن لهذا الشكل ـ بالطبع ـ مضمونه ، ولكنه أولاً ليس ما يدعيه ؛ وثانياً : مضمونه الأساسي مضمون قمعي .

مثال ذلك أننا نوافق أن تعمل الفتاة موظفة . وقد يكون من مقتضيات عملها أن تجلس مع واحد من زملائها في حجرة واحدة مغلقة ، لا يدخلها أحد إلا بإذن . ذلك مقبول تماماً . ولكن حين يدعوها هذا الزميل إلى شرب فنجان قهوة في مكان عام ، فإن موافقتها تصبح فضيحة . هذا هو منطق المواضعة الاجتماعية : الخلوة مع رجل لست ساعات يومياً أمر مقبول ، والجلوس في مكان عام أمام مئات الأعين شيئ مستنكر .

ما هو المضمون الحقيقي لهذه المسلمة المتناقضة؟

وراء ذلك استعباد المرأة واعتبارها وسيلة إنتاج بلا حقوق . فخلوتها مع الرجل تأتي بالمال ، وجلوسها في مقهى يحقق العكس ، ويعطيها حق الراحة والمتعة ، وهذا أمر غير مقبول . إن المسلمة الاجتماعية ، بتصلبها وعنجهيتها ، تخفي مضمونها الوحشي بغلاف من الحرص على شرف المرأة وسمعتها .

وهكذا تصبح ردود فعلنا وأفكارنا وانفعالاتنا مقننة . إننا نلغي أبعادها ونقتصر على ردود الفعل التي جددتها القيم السائدة . أما الكيفية التي يتم بها ذلك فتنقلنا إلى البحث في آلية الجهاز العصبي للإنسان ، وهذا البحث يحتاج إلى متخصص . يكفي أن نقول إن التداعي الحر ـ للأحداث والأُفكار ـ يتوقف ، أو ينحرف نتيجة لكوابح في الجهاز العصبي مصدرها القمع الإجتماعي بكل أشكاله .

من هنا تبرز الوظيفة الخطيرة للأدب الجيد : إنه يقدم لنا تجاربنا الخالية من الحياة والمعنى ليشحنها بطاقة معرفية هائلة . فعندما نقرأ في رواية (أنت منذ اليوم) أن الراوي زهد في جسد الخادمة لأن وجهها يكشف عن وساخته عندما ترتدي ملابسها ، فإن الرواية تجردنا من مسلمة طبقية وتكشف لنا رغباتنا الحقيقية . كذلك فإن العقل الطقسي يقبل خطبة المذيع الحمقاء : لا تحزنوا ، سأحقق لكم وحدة صحيحة . ولكن بمجرد أن نصيغها على شكل خطاب غير مباشر يكتشف العقل الخامل أنه انخدع ، لأن المؤلف قد غيّر الشكل النمطي للخطاب . فلم نعد في خطبة المذيع مضمرين كمستمعين ، بل أصبحنا نقاداً .

دعونا نقرأ :

«وقال لنفسه : أحب أن أحمل وشم دولة عظيمة . أنا متأكد من هذا . غير أن الكراسات الحزبية تضجره . لقد عرف بأنها متشابهة ، ولا معنى لتوزيعها كل أسبوع . يسقط الاستعمار . نعم ، لكن كيف؟ لم تكن الكراسات مفصلة ، ولم تحمل له الاكتفاء» .

لقد أدرك أن الحزب الذي ادعى أنه الشكل الملائم للمضامين الجديدة ، الحاضرة والمستقبلية ، قد أصبح شكلاً فارغاً : تكراراً لقول مبهم ، لا يحيلك إلى واقع أو إلى ذاتك ، بل إلى نفسه كإطار مرجعي . أصبح طقساً اجتماعياً . لذلك كان مفهوماً أن يستقيل من هذا الحزب . إنه بذلك يحتج على فراغ الشكل ، ويدعونا إلى الاحتجاج عليه . بهذا تصبح الحياة ، من خلال الأدب ، تجاوزاً مستمراً . فالإنسان ينفتح على معرفة لا نهائية . وهذا ما وصفناه قبل قليل بأنه «عملية» ، تمييزاً لها عن تكديس المعلومات .

«وأنت منذ اليوم» لا تكتفي بصياغة الحدث اليومي في شكل جديد ،

بل تمنحنا حرية التداعي ، التي يوقفها ما يسمى عادة الحس السليم . فهي حين تطلق حرية دفع الواقعة العيانية إلى كامل ترابطاتها وتداعياتها ، فإنها تحرض آلية أخرى على العمل بكامل طاقاتها ، نعني بها «آلية العقل» ، التي ينفتح أمامها مجال المضي في محاكماتها حتى نهاياتها المنطقية . إن العقل يفعل ذلك بعد أن يكون قد امتلأ بالمضامين الحية التي تخلصت من عبء الأشكال المتحجرة التي تكتم أنفاسه .

هذا عن علاقة هذه التقنيات بوظيفة الأدب ، التي حددناها بقولنا إنها وظيفة معرفية . فماذا عن علاقتها بالمعطى الجمالي؟

الفصل بين وظيفة الأدب وجماليته فصل تعسفي . فوظيفة الأدب جزء من جماليته . ولكننا نستعمل هذا الفصل للإيضاح الجمالي . يعني ، إضافة إلى الوظيفة ، الكفاءة التي ينقل بها الأديب تجربته إلى المتلقي ، واستعمال التقنيات التي ذكرناها كان ، بهذا المعنى ، جميلاً . إنها تجدد التجربة اليومية ، فتثير خيال المتلقي ووعيه لتجربته الخاصة . إنها تعرض الوجوه الجديدة للحدث فتوقظ جهازاً عصبياً تعوّد التكرار ، وبالتالي تعوّد تلقي وقائع الحياة وهو نصف نائم . ولكنه يستيقظ أمام الجدة .

وبكلمة أخرى ، فإن جمالية هذه الرواية تكمن في طزاجتها ، في كشفها لواقع نعيشه ، ولكننا لا نعرفه . إن هذه الطزاجة بالذات تجعل من القارئ مبدعاً .

أنت مُنذ اليَوم

١

رأيته من النافذة ، واقفاً بباب المطبخ وبيده العصا ، وينظر شمالاً من حيث أتت ، بيضاء منسابة الخطو ، وفمها يتلمظ . خشيت أنها قد تدخل الصالون ، فقررت أن أخرجِ .

رآني أنسحب ، فأشار واضعاً إصبعه أمام فمه ، وبيده الأخرى أمرني أن أبقى حيث أنا .

سار نحونا فعرفت أن القطة قد دخلت وأن العملية ستبدأ . لا أريد أن أراها .

سمعته يَصْفُق الباب ،فعبرت إلى الصالون ، وهناك التقينا الثلاثة ولا مجال للخروج .

تَلَمَّسَت الزوايا وهي تموء بخوف . تبعها وضربها قاصداً الرأس ، فأصاب الظهر . تدحرج جسدها مرتين ولاذت بالنافذة .

وسمعتُ صوت مخالبها المحتكة بالزجاج . قفزت ، فضربها وأصاب الرأس ، فنفر دمُها ورشَّ الأرض .

ارتّدت إلى النافذة الثانية تموء عالياً ، واحتكّت مخالبها بالزجاج . وعاجلها على الرأس بضربة أخرى . سمعتُ صوت تنفسها المختلط بسائل الدم . وانتفضت انتفاضةً سريعة ، واستلقت ووجنتها على الأرض . ونفض أنفها مزيداً من الدم ، ثم سكَنَت . . . عيناها ظلتا مفتوحتين .

في صحن الدار ، بين شجرتي الكرمة ، تحلقّوا ينتظرون المدفع . رأيتُ الشمس تُسقط آخر شقفة من قرصها في الأفق الغربي ، وقد خلّفت كثيراً من الشواظ الأحمر . ورأيت المؤذن واقفاً فوق صخرة على

قمة الجبل ، ينظر في ساعته ويعيدها إلى جيبه .

ورأيت أمي في صحن الدار ،تعبر حاملة صينيّة الرز ،والبخاريتصاعد إلى وجهها المحمرّ .

سمعت أمي تناديني :

ـ تعال وتعشّ ياعربي .

ثم رأيت المؤذن يحلّق يديه حول فمه ، ويصرخ :

اللّه أكبر اللّه أكبر

وانفجر صوت المدفع .

اللحم مطبوخ باللبن . . .

أقبل على إعادة تنظيمه فوق الرز باهتمام صارم ، ولحيته الصغيرة البيضاء تتحرك مع حركة وجهه الناشف المدبّب .

ورأيت وجه أمي معروقاً ، وجلد ما بين عينيها منكمش بخطّين واضحين .

اللحم كلّه فوق الرز .

ليس كلّه بل تنقصه قطعة الكتف . كيف أمكنها. قطة بذلك الحجم . أن تلتهم القطعة بأكملها؟ ومايدريك ،فلعلها أطعمت إحدى أخواتها ، أو ربما أطفالها .

انتزع أبي اللسان . قطعة مفضلة عنده .

لكن لماذا عادت ؟ لن يكون لها عشاء بعد هذا العشاء الأخير .

ـ كل يا ولد .

انتهرني أبي .

ـ مالي نفس .

وانسحبت .

قال لي صابر :
ـ هل تحضر الحفل ؟
ـ لا .
وفكرت أنه ، بدوره ، غير راغب في حضور الحفل .
كان الأصيل يطبق على الجامعة . في الحديقة رأيت عدداً من الطلاب يسيرون مثنّى مع البنات ، وبعضهم يجلس على الكراسي الخشبية .
ـ هل تذهب معي إلى أبي معروف ؟
ـ ولكن الحزب هو الذي ينظم الحفل . . .
ـ لن أذهب . . .
ـ إلى أبي معروف . . .
وخرجنا من البوابة الرئيسية ، فرأيت الأوراق الصفراء على طول الرصيف ، والأشجار نصف عارية .

صباح اليوم التالي ، كان رأسها مفصولا عن جسدها ومسلوخاً ، رآه عربي عندما فتح الباب فاختبطت معدته . فأشاح ، وأسرع هابطاً إلى المدرسة .

فيما كان خطباء الحزب يحددون أعداء الأمة ، ويرسمون معالم الوحدة العربية الصحيحة ، جلسا يشربان العرق في البار الصغير ، الذي ليس أكثر من غرفة شحيحة الضوء .
لغير ما سبب واضح ، يفضّل عربي هذا البار . أبو معروف أقل أصحاب المهنة اكتراثاً بالزبائن . مازاته قليلة . إذا استزدته قدَّم لك القليل ، ووجهه واضح الاستياء .
لكنه مكان مناسب .

تحدث عربي عن مصرع القطة . وتحدث عن أماسي رمضان في القرية ، وعن أبيه النحيل ذي العينين كعيني الصقر .

سرد قصة الخناجر الستّ ، والحزام الجلدي العريض ، الذي يثنيه عندما يضرب زوجاته به ليكون أشد وقعاً .

رآه عربي يستعمل الحزام الجلدي كثيراً . لم يره في الهجيج ، إبّان رحيل بني عثمان ، إلا أن الرواة أكدوا أنه رجل بندقية ممتاز .

لكن من الذي سلخ جلدها عن رأسها؟ إما الكلاب أو القطط الأخرى . ولا يبدو لك الأمر مهماً ، ولكنه مهم . ألا ترى؟ فالقطط هي أخت لها .

قال صابر إنه يفهم كل هذا ، وإنه بدوره يذكر أمه المجنونة التي دفنوها على ربوة عارية ، لكنه يعتقد أن واجبه كان يقتضي المشاركة في حفل الحزب .

وقال عربي انه يكره جداً أن يذهب ليرى الشعراء الذين يضربون الأرض بأرجلهم . . . فالإستعمار في الحقيقة ليس تحت أرجلهم .

وقال عربي إن أمه لم تكن مجنونة ، ولكنها كانت كثيرة البكاء ، وقال إنهم جميعاً ليسوا إلا واحداً من اثنين : غاضب يصرخ ، أو ذليل يبكي .

وقال عربي إنه يذكر رسالة قديمة غامضة فيها كلام كثير . ما عاد في رأسه الآن إلا كلمات «باب الواد ، أزيز الرصاص ودوي القنابل» .

لكنه يعرف أنها من أخيه الكبير الذي حارب اليهود . «بعد قراءة الرسالة» قال عربي «ظلت أمي تبكي طول النهار» .

كان الوقت صيفاً ، عندما عاد أخوه المحارب . وُضع الطعام في صحن الدار ، بين شجرتي الكرمة وتحلقوا جميعاً ، والمحارب في الصدارة ببزته

العسكرية . حتى أبوه لم يكن مهتماً بالكوسا المحشي : استمعوا إلى قصص المعارك باهتمام . وكانوا يوقفون اللقم على حدود أفواههم ، عندما تصل القصة حداً مثيراً .

ـ اوقفوا الرماية!

صدرت لنا الأوامر . ورفضت الأمر .

لكن لاحول ولا قوة إلا باللّه . . . نفدت الذخيرة !

ثم اختلط الكلام بالغضب ، وتحدث المحارب عن أنهم كادوا يعدمونه .

ـ الله يجازي . .

وأطبق على حلقة الطعام الجو المكروب نفسه ، فكأن أخاً بعيداً لم يعد . ورأى عربي أن المحارب لم يجلب معه مسرةً فلم يحبّه .

أدّى الولد صلاة العشاء ،وجلس مثقلا .

سمع صوت أبيه آتياً من صحن الدار ، يحدّث مجلس الساهرين بقصة زواجه . قصة سمعها عربي مرة بعد مرة تُروى للساهرين . فضجر وخجل منها .

قرأ في كتاب الدين صفحات لم يشرحها الشيخ بعد ، فهم أن ما من امرئ مؤمن ذكر اللّه وحيداً ، فبكى من خشية اللّه ، إلا وأدخله اللّه الجنة .

لقد أدى فريضة العشاء ، وهي واضحةٌ محددة ، إلا أنه لم يكن يشعر برغبة في البكاء ، فأسف .

سأله صابر عن أموره مع عائشة .

قال عربي إنها ممتازة ، تعرف الوقت الملحّ لتصعد إلى غرفته ، لكنه غير مرتاح ، لأنه يسبب لأخيها ألماً واضحاً .

ـ فليأخذه الشيطان .

لايريد أن يأخذه الشيطان (كلنا له أخت) ، وهو عدوه دون أن يرغب .

قال صابر أن هذه بأجمعها قيمٌ قسريةٌ لاخير فيها .

ـ لي أخت متزوجة من عسكريّ فرسان مثل البغل . يضربها ،ولا تريد الطلاق ، بسبب الأطفال . هل تعرف بماذا نصحتها ؟

ـ بماذا ؟

ـ أن تتخذ لها عشيقاً!

وفكر عربي غير مصدق تماماً . . إلا أن الرواية أذهلته .

يقرأ في التاريخ ، يحب الطيّبين ، يتخاصم مع السيئين . . .

لماذا يتألبون على الإمام ؟ هوذا واقف بباب الدار غروباً ، يشخص ببصره إلى السماء ، ودموعه تنسكب على لحيته البيضاء ، وهو يقول :

يادنيا غرّي غيري
يادنيا غرّي غيري
غرّي غيري
قد طلقتك ثلاثاً
لكن المشكلة أن عثمان قد بُشّر ايضاً . . .

وافق بسرعة على أهداف الحزب ، وتهيأ مضطرباً للانتساب . . المعلم بذاته سيقوم بالمراسم . وسار مع الطالب من الصفوف العليا إلى الموعد السري الخطر .

تحت شجرة جوز هائلة كان المعلم ينتظر . وخجل عربي من بنطاله القصير ، إنه لا يتناسب مع جلال الموقف . . .

سمع كلمات الإطراء لشخصه ، وكلمات كبيرة تصل بينه ، ببنطاله القصير ، وبين الأمة بأكملها .

كان مستعداً لأن يضيف الى كلمات القَسم على الوفاء للحزب ، تأكيداً أكثر ، لكن الوقار المفاجئ أوقفه عند حدود القسم ، لأن القسم ليس لعبة . . .

ثم تقبّل تهنئة الأستاذ وتهنئة الطالب بالصفوف العليا ، وشعر بخطورة ما يحتويه سراً ، وأمتلأ بشعور غير واضح ، لكنه رائع .

ودخّن السجائر في تلك الاجتماعات السرية وقرأ الكراسات الصغيرة .

صرخ ممسكاً برقبتي :

ـ أين النقود ؟

ـ لا أعرف .

ـ يا ابن الكلبة ، لمن أعطيت النقود ؟

يا أبي ، واللّه لم آخذها .

هَوْيَةٌ هائلة من الكف . رأيت شيئاً أحمر :

ـ يا أبي !

ولم أعد أرى .

ـ ما أخذتها ، واللّه ما أخذتها .

ثم لم يعد يجثم فوق جسمي . رأيته يضرب أمي ، وسمعتها تولول ، فَهَرَبْتُ .

في المساء ، اتضح أن الأمر كله لا يعدو أن يكون غلطاً في الحساب .

ـ تعال وتعشَّ .

ـ لا أريد .

ـ ياولد تعال وتعشَّ .

ـ مالي نفس . . . مالي نفس .

والليل يجثم ثقيلاً .

رأى أنه يجلس على السطح ، وأن الأفق مليء بالشواظ الأحمر . سكون . وفجأة تهب ريح عنيفة . يحاول أن يمسك بشئ فلا يجد . يقذف به من السطح العالي ويسقط على الأرض . . . حيث لا يعود يجد جسده بل يرى ، رغم أنه دون جسد ، سائلا مندلقاً أصفر .

ـ إنه أنا بعد الموت . . . وأسفْتُ .

ـ أحلامي مختلفة .

قال صابر .

إنها تدور كثيراً حول الزنى بالمحرمات .

وقال صابر إنه يؤمن بأخلاقية جديدة . وقال أن الحرية الحقيقية هي أن تكون خارج الخوف ، وأن الحرام هو الخوف .

وقال عربي إن هذه مسائل معقدة جداً ، وهو لا يجزم بشئ حولها . وطلبا بطحة عرق أخرى .

٢

مدينةُ الغبار الكثير والشمس الحارة ، سماها فيما بعد في دفتر مذكراته «هجير» . تسمية مناسبة تماماً .

المحارب هنا أصبح له كرش . وهو ضابط عهدة للجيش . وما عاد أحد يريد إعدامه .

مدينة فريدة على أطراف الصحراء ، قامت على مخميات اللاجئين والمعسكرات . بيوتها من الطوب الطيني ، تسفيها الرياح الخماسينية صيفاً بلا هوادة . إلا أنه يلاحظ الفارق . الطلاب أنظف ، ويتحدثون عن السينما والوطن والكتب والأحزاب بشكل باهر الوضوح .

قال للرفاق بإنهم عانوا من نقص الكراسات العقائديّة هناك ، وأَنه يعترف بنقص ثقافته ، ويريد المزيد ، فطمأنوه وامتدحوا رغبته .

أصايل هجير اللاهثة من الظهيرة ما تزال .

يجلس المحارب وزميليه في الجندية . عبد الكريم ، النحيل ذو الوجه الأبرص ، وحمد القصير السمين الغليظ القول ـ يرشون الحاكورة بالماء ، فتصعد رائحة الأرض المبتلة ـ وتفتح زجاجة العرق ، وتجهز متطلبات الشراب . على الدكة المرتفعة يجلسون يتقارعون الأقداح . يقهقهون ، ويستعرضون سرقات العهدة .

ـ صغرت ياخال!

ما من أحد منهم خال لاحد ، ولكنها طريقةٌ في التعبير .

والسرقات الكبرى ، كما فهم عربي ، هي المحروقات والذخيرة . أما الحرامات والمواد الغذائية ، فيسخرون منها .

ـ هات يا عبد الكريم!

يضحك المحارب كاشفاً عن أسنان غير نظيفة .
وبصوته الرنان يغني النديم :

أماناً أيهـا القمـر المطـلّ   فمن جفينك أسيافُ تسلُّ
يزيد بهاء وجهك كل يوم   ولي وجهٌ يموت ويضمحلُّ

وتفرغ الأقداح ـ وتملأ .

وكان جارٌ للإمام الأعظم يسكر ليلاً ، ويغني مبتدئاً بصوت «أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا» .

وكان الإمام يحب الاستماع لصوته بعد صلاة العشاء .

أما الفتى ابن القاسم ، فقد كان ينشد «لا اله إلا اللّه» على حدود السند ، حين غضب عليه الخليفة وأمر بإحضاره مقيداً على بغله .

عَبرَ البراري ، وفي مسيرة الكرب ، تطلع القائد اليافع ، ورأى الشمس الغاربة ، ورأى أن الأمر عظيم . فهمس لنفسه :

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا   ليـوم كريهـة وسـداد ثغـر
وصبرٍ عند معترك المنـايا   وقد شرعت أسنتها بصدري

ثم إنهم قدّموه للخليفة الغضبان ، فأمر بِجلِد بقرةٍ ، فوضع الفتى فيه ، وخيط عليه ، وأمر الخليفة بنار ، فأوقدت ، وأمر بالفتى ، فرمي إليها .

وفي هجير يغني عبد الكريم أحياناً :

واسترجعت سألت عني فقيل لها
ما فيه من رمق دقّتْ يداً بيد

ندد المذيعون بصانعي المؤامرات .

وسمّوا أسماء معينة كثيرة . وقال عربي : طبعاً كلهم فاسدون . وسُرَّ كلما قال مذيع بأن في مكانٍ ما من العالم قام أناس بذبح حكامهم . ولم يهتم بجلود رؤوسهم ، بل أنَّ بعض الجلود سلخت ، وسُرَّ عربي بذلك .

ولاحظ عربي أن الخادمة التي يحضرونها تنام معه في الغرفة . وهي بيضاء الجسم حين ينحسر الغطاء عنها . كانت غائبةً عن حسه لفترة . ثم عرَّاها ،ورأى أن جسدها الداخلي نظيف جداً ، فجاس خلاله بلذة .

ويبتئس حين يرى أن وجهها ، بعد أن تضع ملابسها ، وسخ جداً .

وقال لنفسه :

أحب أن أحمل وشم دولة عظيمة . أنا متأكد من هذا . غير أن الكراسات الحزبية تضجره . لقد عرف بأنها متشابهة ، ولامعنى لتوزيعها كل اسبوع . يسقط الاستعمار . نعم لكن كيف ؟ لم تكن الكراسات مفصّلة ، ولم تحمل له الاكتفاء .

لم يقل لرفاقه ذلك . ولم يقل لهم أنه ما زال يتفاهم مع شخصيات قديمة ميتة . وعرف أن شيئاً كهذا سيضحكهم . والحق أن أحب أصدقائه من خارج الحزب .

ولأن الخادمة ظلت وسخة الوجه ، أحب من بعيد صبية سمراء تغدو لمدرستها كل صباح في الميعاد نفسه .

جمع شجاعات التاريخ مرةً ، وحاول أن يعطيها رسالة ، فاعتذرت بأن الناس يرون .

كانت أمي تقول «نحن نرش السكر على الموت» . يقيناً أننا نفعل ، كانت تحفظ كثيراً من الأقوال المُكرِبة المتشابهة .

قلت لأبي :

ـ لماذا يا أبي؟ لماذا بهذا الحزام العريض تضربها ؟

تضاحك وعبث بلحيته الصغيرة . كان في إحدى لحظاته المرحة :
ـ الله يلعنك ويلعن أمك .
ليست فرصة المداعبة من طبع أبي ، حتّى عندما يستخفه المزاح . إلا أن عينيه الصغيرتين تدوران في المحجرين .
لم يكن يلعنني في الحقيقة . طريقة في التحبب لم أسرّ بها .

ستة خناجر طعنت جسده . وسار عشرين كيلومتراً . من أجل الأرض ثُقب جسده تلك الثقوب الستة . تمدد على الفراش أربعين يوماً . وتهامس بعضهم مؤكداً أنه لن يعيش بعد .
ذات صباح ترك فراشه ، وخرج ليرى الأرض .

حلم :
يسير في الشارع ، قلقاً على شئ ما أضاعه . يمرّ باص . الكُوى مليئة بالوجوه . في المقعد الأخير تجلس هي . وجهها مختلف ، خفيف ومنفوش كوجه شبح .
ـ إنها ميتة .

جرى سريعاً وراء الباص دون أن يدركه . الوجه المنفوش يلتفت خلفاً . ينظر إليه كأنه يدعو .
أراد أن يصرخ «يا أمي» ، فاكتشف أنه بلا صوت .
وارتفعت أصوات تزمر من خلفه ، فالتفت . إنه يعيق حركة السير . الناس حانقون يشيرون إليه ويصرخون .
والتفت يريد الباص ، ولكن الباص اختفى .

استمر المذيعون يشتمون .

وقرأ عربي مزيداً من الصحف والشعر . كلهم غاضبون بسبب النكبة . إلا أن عربي لم يفهم .

كان قد سئم من الخادمة ، واستمر يجوس في جسدها الأبيض ، ثم يكتشف وساخة وجهها فيتقزز . . .

وحين قالت له فتاة نظيفة الوجه ، أنها لا تمانع في أن يعرّيها ، فعل وكفَّ عن الخادمة ، وايضاً ضجر من الأخيرة .

واستمر يقرأ ما يكتبه الأدباء والصحفيون والسياسيون عن مصير الأمة . واعتقد أن هذا الذي كتب يكفي لتسويد دجلة ثلاثة أيام كاملة .

وقال المذيعون بعد مدة إنّ الذين ذبحوا أعداء الشعب سابقاً هم أنفسهم أعداء الشعب ، وأن جلود رؤوسهم حَريةٌ بالسلخ . واعتقد عربي أن هذا سخيف .

وقلّت رغبته في قراءة ما يكتبون لأنه ، مثل الكراسات الصغيرة ، شيء معاد .

وحنق عربي على نفسه ، لأنه بعد أن يضجر من جسد البنت العاري ، لا يعود راغباً في أن يلمسه .

من حين إلى حين ، رأى اناساً يملأون الشوراع ، متصايحين بغضب ضد الحاكمين . فليذهب الحاكمون إلى جهنم . لا أسوأ منهم بشراً .

ينزل العساكر بخوذاتهم الفولاذية ، ووجوههم المطلية بلون أسود .

يرشق الناس العساكر بالحجارة ، ويرشق العساكر الناس بالطلقات . تسقط اللافتات المنددة ، ويهرب الناس متفرقين . بعضهم يظل على الأرض ممدّداً ، وربما يموت .

لم ير عربي ما يحدث للممدّدين على الأرض لأنه يهرب . ويشكون في المنزل من عدم وجود الخبز ، بينما الأناشيد الثائرة في المذياع تندد

بعملاء الاستعمار ، وبعضهم الآخر يندد بالمخربين .

ثم يعود الخبز فيظهر ثانية ، وتظهر الخضراوات .

ولم يعودوا يجتمعون أسبوعياً . «ظروف استثنائية» ، قال الرفيق المسؤول . حتى أنهم لم يجتمعوا مرة في الشهر .

وفكّر عربي بأن الأمر هكذا أفضل .

٣

في الساحة الأمامية كانوا يتراكضون . يمسك الواحد بالآخر ويضربه بيده ، ويضربه برجله . ويركض آخر من زاوية ، ويضرب الأول على رأسه بجذع غرسة اقتلعها للتو من الحديقة . يسقط هذا أرضاً ، ويسقط اخر واثنان وثلاثة ، وتركض مجموعات جديدة ، يعلو الصياح والشتم .

إحدى الجماعتين اكتشفت وجود كومة من الحجارة عند زاوية المبنى ، فاستولت عليها ، وقذفت الجماعة الأخرى بعنف . وسقط أربعة وسال دمهم على الأرض .

هرب المندحرون شمالا ، وصعدوا المدرج إلى مبنى المكتبة . تدافعوا وسقطت عليهم حجارة كثيرة . ثم أصبحوا جميعاً داخل مبنى المكتبة ، وأغلقوا باب الزجاج . وركض عدد كبير من الطلاب وراءهم ، وكسروا الباب وهم يشتمون .

ثم خرجوا يقتادونهم ، واحداً واحداً ، ويضربونهم على رأس الدرج ويدحرجونهم للأسفل .

عبر الأسوار وعبر باب الجامعة يركضون هاربين . لكن بعضهم يفشل في القفز فوق السور ، فيمسك به طلاب غاضبون من جديد : «يا شعوبي يا وسخ . .» ويضربونه للمرة الثالثة ، أو ربما الرابعة .

خارج الأسوار ، كانت سيارات الشرطة والمخابرات تنتظر . تُملأ بالهاربين من فوق السور ، وتذهب بهم إلى مكان ما .

كان الزعيم غاضباً جداً من الشعوبيين ، فأعلن أنه يترك أمرهم للشعب . في الجامعة قال لنا الرفيق الكبير أن نتأهب لنؤدب الشعوبيين .

ما أحببت الرفيق الكبير في الجامعة . أعتقد أنه ليس إلا أحمق كثير الكشف عن أسنانه ، فيما يعتقد أنه يضحك .

وأظن أنه كان يحب النساء أكثر من الأمة . وعندما كنت أسير مع طالبة شعوبية سمراء عرفتها منذ زمان سابق ، التقاني وكشف عن أسنانه وقال :

ـ عرّفني عليها .

ـ لماذا يارفيق؟

ـ بلا رفيق بلا بطيخ . عرفني عليها . . . هاها .

ـ إنها شعوبية .

ـ ما يخالف ، عيني . . ما يخالف .

لم أعرّفه بها ، ولم أستفد ، أنا شخصياً ، من معرفتها .

قال المذيع إن الشعوبيين وحوش دون خلق ، وأنهم قد دفنوا الناس أحياء ، أو سحلوهم ، وعلقوهم على أعمدة النور ومثلوا بهم . . .

وقال الرفيق الكبير إن المقصود بالناس هم أعضاء الحزب وشهداؤه الخالدون .

لم يهتم بكونهم شهداء الحزب . كان ممكناً ألا يصدق كل هذا ، لولا أنه قرأ قصيدة لشاعر مشهور منهم تقول :

سنصنع من جماجمهم منافض للسجاير

وقال عربي إن التفكير بمنافض من هذا القبيل ، أسوأ كثيراً من سلخ رأس قطة .

وأكد أنه لايريد لنفسه منفضة مصنوعة من جمجمة ، سواء كانت جمجمة شعوبي أو سواه . فهو لا يحب الجماجم عموماً .

٤

غادرت المقصف ووقفت برأس الدرج أتأمل النيون يضيء قلب الحديقة الأمامية . كان العشب الأخضر واضحاً . وكان زنارٌ من العتمة يحيط بالمنظر . وعبر الأسوار بدت أضواء الشارع ووراءها أضواء مركز شرطة .

عبرت الساحة إلى البوابة الرئيسية . هنا يكون مركز الشرطة قبالتك تماماً . رأيته قليلا ، ثم انحرفت يساراً وهبطت متردداً . فكرت أن أذهب إلى المكان رغم أنني غادرته حانقاً آخر مرةٍ زرته .

بوسعي أن أصل المكان سيراً إذا اتخذت ميسرتي يمنةً . لم أكن واثقاً من ذهابي . ثم إنني لا أريد أن أذهب مشياً ، ذلك يزيد المشروع سوءاً .

جاوزت المتحف وسرت بمحاذاة النهر ولاحظت أن حركة السير قليلة وأن الأصوات قليلة أيضاً . وقتٌ مبكرٌ للنشاط الليلي ، متأخر جداً للنهاري .

انتهيت إلى موقف التكسيات وكان عليّ أن أنتظر طويلاً في جوف السيارة ، لأن الحركة إلى المكان لم تحمَ بعد . إنهم يذهبون بعد منتصف الليل عادةً . لماذا ؟

وسمعت الأغاني الوطنية عبر مذياع السيارة ، وكدت أهبط وأغير رأيي . غير أنني كنت محرجاً من السائق .

عندما وصلنا المكان وانتهت زمالة خمسة ركاب غرباء إلا في هذا الهدف ، تفرّقنا دون تحية . . .

هاجمتني روائح المكان الكريهة حالما عبرت البوابة الخارجية .

رأيت زاوية المأكولات أول ما رأيت . . بسكويت ، فواكه ، معلبات الخ . . .

اختبطت معدتي فأسرعت أمّر بنساء الطابق الأول . إنهن الأرخص والأقذر .

في الطابق الثاني الروائح أقل والنساء أقل ضجيجياً . لكنهن يمضغن اللبان أيضاً ويضربن أمكنة خاصة في الجسم .

اخترت واحدةً على وجهها معالم بثور ولكنها ليست من اللواتي يضربن أمكنةً خاصة .

قالت لي إنها لا ترغب في التعري التام وأنه يجب ألاّ يهمني تمام التعري . ولم أناقشها أكثر ، فحاولت أن تطيّب خاطري بإصدار بعض الأصوات الخاصة أثناء العمل ، فرجوتها أن تكف .

فصرخت بوجهٍ شيطاني :

ـ فاكر نفسك دون جوان ؟

وعبثاً حاولت إقناعها بأن تقبل النقود هبةً ، وظلّت تصرخ في وجهي .

وأخيرا قدرت أن أهرب تاركاً المبلغ على حافة المغسلة .

صباح اليوم التالي ، استدعيت لدائرة المباحث العامة . أتى رجل قميء الحجم يعرفني ولا أعرفه ، وأخذني من فناء الجامعة قائلا إنهم يريدونك هناك .

استقبلني رجلٌ وسيمٌ ناعم الشعر أسوده . كان يبدو مهماً . صرف القميء بإشارة من رأسه ورحب بي مؤكداً أن معلوماته عني مشرفة .

زهوت قليلاً إلاّ أن توقّعاً خائفاً منعني من استكمال سعادتي .

ـ هل تعرف هذا ؟

مدّ لي جواز سفر مفتوحاً على صورةٍ عرفتها للتو : صديق قديم يدرس الطب في بلاد أخرى حيث يصنعون من الجماجم منافض للسجائر .

ـ نعم أعرفه .

ـ هل هو شعوبي؟

أطبق علي ولم يعد هناك شعور بالزهو .

ـ أستاذ عربي ، اسمعني جيداً . . . لا مجال للتردد في قضية كهذه . نحن واثقون من شعوبيته . عذبناه ولم يعترف . شعوبي حقير . استشهد بك فعرفنا أنك صديقه . لكن معلوماتنا عنك مشرفة . فقبلنا أن نكسر رأسه بشهادتك .

ومضى يشرح :

ـ مصلحة الوطن قبل الصداقة ، هل هو شعوبي؟

ـ نعم شعوبي .

قلت . . . وسمعت صوتي الجاف .

ضغط جرساً فأقبل القميء يسعى ، ثم خرج ليأتي بالشعوبيّ وأدخله . بدا جلياً كم عُذِّب . لم ينظر في عينيْ أحد ، ولم يعرف من كان في الغرفة .

ـ أنت استشهدت بالسيد عربي؟

الآن نظر المعتقل وارتجفت عضلة وجنته عندما رآني . ثم أطرق بوجهه موافقاً .

ـ أستاذ عربي ، قل أمامه هل هو شعوبي؟

كان الوقت قد فات على أي خروج . فسمع صوته يقول :

ـ نعم

ولم ينظر إلى الصديق القديم ، ولم يَصِح أيّ ديكٍ في العالم ، بل كان هناك صمت عظيم مطبق .

على امتداد الشارع الصامت المعتم ركضت . لخطاي السريعة دبيب سمعت صداه في جوف جسدي . تعيّن علي أن أركض فركضت أكثر . .

فجأة عند المنعطف برزت لي شاحنة عسكرية . فات الوقت لأَتحاشاها فأدركت أني لا محالة ميت . سريعاً وددته أن يحدث ،

فألقيت بنفسي تحت العجلات ، وقلت «تم الأمر . . .» سمعت صوت عظامي المتكسرة . سمعته وانتظرت .

ثم استيقظت في رابعة النهار .

يغدو للجامعة صباحاً ، ومساءاً يشرب العرق مع الأدباء ، وكلّهم متذمرون . . . إما من الفتيات أو من السياسة .

قال الأديب

ـ أخي . . . الأزمة أزمة ديمقراطية .

اسرائيل والاستعمار قضية ثانوية . الأزمة هنا . . . في الداخل ، الديمقراطية .

ووضع مخلّلةً في فمه . التهمها بسرعة وشرب للتوّ جرعةً أخرى من العرق :

ـ ما رأيك ، أستاذ عربي؟

كنت مهتماً بالبحث عن حبة فستق جيدة ، وعبثاً وجدتها في الصحن كله .

ـ بماذا ؟

ـ بحقيقة الأزمة .

كنت أفكر بأن الفستق المخزون طويلاً يعفّن . وبحثت في رأسي عن جواب فما وجدت . كل الفستق كان معفناً .

من غرفتي في الطابق العلوي سمعتهم يتصايحون . صوت الأب والإبن يعلو أكثر ، ثم صراخ الأم . ثم سمعت خبطةً لا بد أنها على الدرج الخشبي . مددت رأسي من النافذة فرأيت الاب يطأ في بطن

الابن ويضع يده في فمه كأنه يريد أن يمزقه . . . وفم الابن يزبد ويداه تطوحان في الفراغ بحركات غير مجدية .

وكانت عائشة تصرخ أيضاً ، والأم تحاول أن تدفع الأب وهو يصرخ :

ـ خلّيني اذبحه ، خلّيني أذبحه !

أغلقتُ النافذة وانسحبت إلى سريري ، فخفَّ صياحهم ، ثم لم أعد أسمعه .

كان عليّ أن أنتظر طويلاً قبل أن تصعد عائشة إلى غرفتي .

وقفت بالباب تنظر بعينين سوداوين ورموش طويلة ، كذئبة تبتسم بغموض .

ـ ادخلي يا عائشة !

واستمرت تنظر .

ـ ادخلي ياحلوة ، أحضرت لك بقرة شيكولاته .

رفعتُ الدمية الحلوة ومَدَدْتُّها لها . . ضحكت وكسرتْ رِجلها للتو وابتدأت تأكل .

ـ ما هذا الذي جري تحت ؟

ـ علي . . . ضربه بابا .

ـ ولماذا يجب أن يضرب بابا علياً؟

كسرتْ رجل البقرة الثانية وبدأت تأكلها .

ـ لا تعرف ؟

وابتسمت .

ـ لا . .

ـ شيطانٌ أنت .

ـ كم عمر علي؟
ـ ٢٥سنة .
ـ سن مناسبة تماماً .
ـ مناسبة لأي شيء؟
ـ لا لشيء . قولي : هل كان بابا يضربه قبل أن أسكن عندكم ؟
ـ كثيراً .
ـ كنت تصعدين لهذه الغرفة؟
زمّت شفتيها بغضب .
ثم إنني نسيت علياً فأقبلت عليها وزوبعت رائحتها في جمجمتي .

مخطئٌ أنت يا صديقي .
لماذا تكرهني أنا؟ لا شأن لي . إنها الغرفة في الأعلى . هذا ما يجب أن تكره . دفعتُ أجرةً إضافيةً لها . . . أجرةً ترهق مخصصّي الشهري من النقود . ولعليّ أرفَقُ بك ياصديقي . فعلى الأقل لا أعتقد أنك يجب أن تذهب إلى جهنم .

ولماذا يزعجك شرفها إلى هذا الحد؟ ألم تفقد أنت نفسك ما هو أكثر؟ وإلا فلماذا أنت ، وهمْ جميعاً هنا؟ في هذه المدينة ، البعيدة عن مكانكم؟ وعليهم يا صديقي أن يؤجّروا غرفةً ، وإلا فكيف ستذهب للمدرسة يا علي؟

واتفق أن كانت لهم عائشة ، وكان لا بد لها من أن تصعد للغرفة العليا . وهم لايفعلون أكثر من أن يأخذوا بعض الليرات الإضافية أما

هي فصاعدةٌ للغرفة في كل الظروف . . .
ألا ترى أن حقك ألا تشقى لمثل هذه الأمور؟

كنت أراهم في كل مكان . في هجير . والعاصمة هناك والعاصمة هنا . في كل مكان هم موجودون ، أقلةً لهم خدود نظيفة لم يعودوا منهم . أما في الأزقة وبين الخيام فأطفالهم دائماً وسخو الوجوه موحلون ، وكأنهم عصافير خرجت للتو من بوري صوبة .

دائما يتصايحون ، على الأبواب التي توزّع البقج يتدافعون ، يرفس الواحد منهم الآخر ، العجائز القبيحات والشبان بسحناتهم غير المسرّة والصغار الحفاة .

دائما يتصايحون ، حتى هنا عندما اتخذوا سقفاً وأجروا غرفة في الأعلى ، يشتم أحدهم الآخر ، ولديهم دائماً سبب للشتم والصياح .

تُرى في تلك الجماجم التي يحملون ، هل يبقى سؤال معلق أبداً : لماذا هم هنا أصلاً؟

المذيعون يؤكدون أشياء كثيرة حول الموضوع . لا أريد المذيعين . أريد أن أسألهم هم ولكنهم دائماً في جلبة .

استيقظ عربي ذات صباح على موسيقى عسكرية :

ـ من ذبح من؟ ومن يريدُ أن يحكم مكان من؟

جسمه مرهق بفعل كوابيس البارحة . فليأخذهم الشيطان كلهم . عما قليل سيعرف الحكاية . لم يحلق ذقنه بل ارتدى ملابسه وهبط الدرجات الخشبية . قبل أن يتمنى لأم علي صباحَ خيرٍ أجهشت بوجهه :

ـ إنقلاب ياسيد عربي . . اللّه يخرب بيوتهم .

ـ إنقلاب أين ؟

ـ عندنا ياسيد عربي ، يا خراب بيتنا ، ياذلّنا .

غادر المنزل بفضولٍ متزايد . هل فعلوها ؟غير معقول . في الشوارع يتحلّق الناس حول أجهزة الراديو . ليست موسيقى عسكرية بل أغنية عذبة :

أين الشذا والحلُم المزهرُ   أهكـذا حبـك يا أســمرُ
أهكذا تمضي مواعيـدنا   وكان منها المسك والعنبرُ

ليس وقت مسكٍ وعنبر . حقاً إن الضباط لا يخلون من روح الدعابة . طرب عربي ، واستعرض ذهنُه للحظةٍ بعض السمراوات اللواتي عرف .

ثم لاحظ أن الأغنية مقصودة لتكون وطنية . جميل !

قال المذيع «الديكتاتورية المنحرفة جعلت من البلاد مزرعة للمرتزقة من المريدين والأذناب» .

واللّه ، لقد فعلوها . .

إن عدد العساكر والسيارات الانقلابية قليل . أين هم المدبرون ؟ ماذا سيفعل الزعيم؟ إنه بعيد جداً .

ـ بيان رقم ٤ صادر عن . . .

ـ هست . . . انت وهو . . . خلّنا نسمع !

رأيت صابر على ضفة الشارع الثانية يهرول ووجهه محمرّ!

ـ صابر ، صابر !

لوَّح لي بيديه وأقبل محتضناً .

ـ ما هذا يا صابر؟

ـ شيء لا بد منه .

ـ ولكن . . .

ـ فهمان ، واللّه . ولكن لابد منه . هل أنت ضدّه ؟

ـ لا أدري .

مرت سيارة عسكرية ، لوّح ضباطها للجمهور فهتفت أصوات مختلفة . لوّح صابر محيياً . . . ووقف عربي ينظر .

ومن جديد نفس الأغنية :

أين الشذا والحُلُم المزهر   أهكذا حبَك يا أسمر

وفيما كان عربي يتناول طعام الغداء في مطعم الطلاب الصغير المكتظّ ، أعلن المذيع أن الانقلابيين سيفاوضون الزعيم لتصحيح الأخطاء (لسنا ضد الزعيم بل ضد الحاشية المستغلة التي قادت الانحراف . . .)

هلّل بعض الطلاب ، وبعضهم زمّ وجهه واختلط همسهم (مسخرة ، خدعهم . . . الخ . . .) في الشوارع حمل بعض الناس صورة الزعيم وساروا :

ـ هيك علّمنا الزعيم . الخ . . .

ثم عاد المذيع وقال إن الانقلابيين غيروا رأيهم ، وإن الزعيم في الحقيقة ديكتاتور ولا يرجى صلاحه .

ففرح بعض الشعب ، وابتأس بعض الشعب . وصمت كثيرون ، غير أن المذيع طالب الناس ألا يحزنوا . ووعد بوحدة صحيحة تقوم بين كل العرب .

إلا أن هناك من لم يصدّق فبكى ما استطاع البكاء ، ووُجِد أفراد لزموا الفراش مرضاً ، ثم ابلوا بعد يوم أو اثنين . . .

اجتمع بعض عرفاء القوم تحت سقيفة ما وأعلنوا أنهم ممثلو الشعب ، وأنهم لا يريدون الزعيم (ديكتاتور منحرف) ووعدوا الشعب بنفس الوعد : وحدة صحيحة .

ـ وفق اللّه ذلك الشطر الحبيب . . . والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .

قال الزعيم . وحزن عربي لهذه الجملة الوداعية .

كفَّ خطيب مسجد الجامعة عن مهاجمة الاشتراكيين والملحدين ، وكرّس خطبه لمهاجمة ملابس النساء القصيرة ، وأمورٍ أخرى تخصصية .

ـ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى .

صرخ الخطيب عبر مكبرات الصوت .

(سبحان اللّه في طبعه) فكّر عربي (حتى هو أصبح يلعب الدبلوماسية ، ويعرف الوقت المناسب للخوض في الموضوعات . لكنه لا يعدم ما يهاجمه) .

في خياله وضع عربي الإمام على كرسي رئاسة الجمهورية ، فتقلقلت الصورة وتشوشت . إنها أمور جمالية لكن حقيقية!

عائشة بدأت تتغير عندما تخلى أهلها عن غرفة أخرى لأحد اللاجئين السياسيين .

ـ كلّه بقر . بقر .

قالت له عندما أعطاها الدمية الحلوة . (من أين لي أن أنافس السياسي الجديد؟) ، أعتذر بأن هذا ما ينتجه المصنع . فرغبتْ في غزال . فأكد لها أن المصنع لا ينتج إلا البقر .

ـ إن الأمور تسوء تماماً .

أكد عربي لنفسه .

٥

حزمتُ حقيبتي ، وعند أسفل الدرج تحدثت إلى أم علي .
ـ متأسف لأنني لم أخبرك من قبل . . أنا راحل .
ـ راحل؟ لماذا ، جارنا؟ هل أغضبك أحد؟
ـ لا . لكنني راحل .

رمقتني عائشة من باب المطبخ بصمت ودون ابتسام . وددت أن أحييها بجملة وداعية ،لكنّي متعكّر وحلقي جاف .
ـ أغضبته يا عائشة؟
ظلّت صامتة ترمقني دون أثر للألفة القديمة .
ـ ما أغضبني أحد ، لا واللّه ، جارتنا . أنا راحلٌ دون غضب .
ـ اعملي لنا فنجانين بسكر خفيف يا عائشة .
تفضل ، جارنا . . إشرب قهوتك وقل لي ما بك .

ليتها تتركني . ذلك أنني تعبت يا أم علي ، ولا أريد مزيداً من الصفقات . لا حظَّ لي بها . الغرفة العليا ستؤجر ، ربما بما هو أغلى . إنه ثمنٌ مهذب ،ليته لم يكن مهذباً .
عدت أقسم على أنني لست غاضباً من أحد . وحملت حقيبتي ، وقلت «خاطركم» . . . وعبرت في الصمت .

هبطت السوق . على الجانبين تقوم محلات ألبسة النساء الداخلية

والخارجية ولزوم الماكياج .

على المصلبات ترتفع لافتات الدعاية الانتخابية .

(صوت الاسلام تحت قبة البرلمان ، انتخبوا . .)

(إليكم مرشح العمال والفلاحين ، ممثل الكادحين . .)

(من أجل القضاء على الاستعمار والصهونية ، انتخبوا . .)

رأيت ملابس النساء في الفترينات ، ألوانها عديدة وكلها معروضة بشكل خلاب .

ورأيت مزيداً من اللافتات .

(من أجل حياة برلمانية وديمقراطية سليمة انتخبوا . .) .

وتذكرت عائشة . لقد أضعتها إلى الأبد .

وبقيت أنقل بصري بين اللافتات والفترينات ، وفي داخلي خواء .

ما الذي قالوا له هناك؟

قالوا انه يجب الثقة بالحزب أولاً ، وأما المواقف المرحلية التي تقررها القيادة العليا فهي تكتيك مؤقت للاقتراب من الهدف .

ـ يارفيق ، هل تنسى ما لقي حزبنا من اضطهاد ، وهو الذي ضحى بكل شئ من أجل الهدف الكبير؟

ـ بلى ، أذكر .

ـ هل تنكر أخطاء الديكتاتور؟

ـ لا .

ـ إذن ، يجب أن تؤيد موقفنا من المسألة . . .

ـ لا أدري ، لا أظن . . . لا . . .

ـ ألا تثق بأهداف الحزب؟

ـ لا أدري .

كان محرجاً ولم يوضح نفسه . لم يستبقِ شيئاً ليوضحه .

قال لهم إنه شخصياً لم يعد قادراً على خدمة حزب ، وأنه يخدعهم لو بقي بينهم .

ـ أوهام . يا رفيق عربي ، أنت شريف ولم تخدع طوال تاريخك الحزبي .

تاريخي الحزبي ، أين هو؟ لم أساهم حتى بضرب الشعوبيين حينما كان ضربهم تسلية .

ما الذي فعلت منذ عمدت تحت شجرة الجوز الكبيرة إلى الآن؟

لم يقل لهم هذا ، قال لهم انه يتمنى للحزب التوفيق ، أما هو فلا يملك إلا أن يتركهم .

قلت له :

ـ أبو زهير ، أريد غرفةً بسريرٍ واحد .

قال مداعباً .

ـ كلما طردوك من بنسيون تتذكر ابو زهير . . . . ها؟

ـ لم يطردوني هذه المرة ، أنا تركتهم .

ـ بنت حلوة؟

ـ دعنا من البنات ، اللّه يلعنهن . هل الغرفة التي على السطح مشغولة؟

ـ فيها واحد مجنون ، يرحل بعد يومين . . . تنام على السرير الثاني معه ليلتين؟

ـ وبعدئذ سرير واحد .

ـ بأمرك .

صعدنا الدرج ، وقدَّمني إلى المجنون : أسمر ، أصلع الرأس مع أنه شاب .

ـ الأخ من أين ؟

سألني . أجبت :

ـ أنا بدوي .

فهشّ مرحباً .

ـ اللّه يحييكم ، البدو . فيكم أصالة .

شكرته وأخبرته أن الأصالة معدومة لدينا كما لدى غيرنا . وفهم أنني أتواضع فحسب .

قال المجنون :

ـ عظيم . . . كيف الأمور في الجامعة؟

أخبرته أن كل شئ حسن .

ـ بعد أن صفّى الشعب الديكتاتور كل شئ حسن .

عدنا ثانيةً للأمور المضجرة ، والحديث الذي لا غناء فيه . كنت زاهداً في كل هذا فأومأت موافقاً . ها أنا أخيراً على سطح هذا الفندق من الدرجة الثالثة ، يقتحم رجل غريب حياتي ، ليكرر نفس الحكايا المضجرة .

ـ سوف يكتشف العرب أن الوحدة الطوبائية التي يدعو لها الكاذبون ليست إلا خدعة . وحدات تأخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافية والعرقية ، هذا هو الهدف العلمي والمنتج . . . وعند ذاك سيعلم الناس قيمة الزعيم . قلت .

ـ أي زعيم ؟

أخبرني أنني أخلط ، وأن ليس هناك إلا رجل واحد استحق لقب الزعيم . . . ذلك هو الزعيم الذي أعدمه الجَهَلةُ والأذناب .

شرح لي أن الزعيم لم يجبن ، ولم ترتجف خلجة واحدة فيه حين واجه الموت ، وأفادني أن الزعيم أعدم نصف واقف على ركبتيه ، فدهشت وكنت أعتقد أنهم يُعدمون واقفين .

ـ حين سُئل الزعيم إن كان له طلب أخير ، أجاب «نعم» .

طوّح المجنون بيديه في الهواء ، وبدا أنه يستعيد لحظة هائلة في خياله .

ـ هل تعرف ماذا كان طلب الزعيم؟

ـ الحقيقة أنني لا أعرف .

ـ «نعم» قال الزعيم . «هناك حصاه تحت ركبتي إرفعها» وانحنى العسكري صاغراً وأزالها .

ـ لكنه الآن ميت .

ـ هل تموت الفكرة؟ لا . الزعيم رمز الأصالة الفكرية الوحيد بين جماعة المهرّجين .

عاد يطوح بيديه وكأنه يصرخ في وجهي ، فأنبأته أنني قليل الاهتمام بالسياسة وبالزعماء جميعاً .

ـ هذا سرير واحد ، وبسعر خاص ، لا تتركنا للبنسيونات .

ـ لا مزيد من البنسيونات ، أريد أن أستكمل مذاكرة دروسي ، وأتمشى على هذا السطح .

ذكّرني أنني قلت مثل هذا سابقاً ، ثم غيرت فكري ، وحذرني من أن النساء والبنسيونات ستدمر مستقبلي إذا لم أتعقل .

عربي يعاني من الكوابيس . . .

واحد منها تكرر كثيراً وزاد جسمه إرهاقاً . يرى نفسه يزاول رياضة قسرية ، ليس بهدف الرياضة وإنما هكذا دون سبب . . . . ترتفع رجلاه في الهواء ويدور على محور رأسه . رجلاه خفيفتان بل كأن لا وزن لهما . يحاول إسقاطهما ويفشل . تؤلمه عنقه . يقول لنفسه إنني نائم وهذا كابوس ليس غير ، يجب أن أستيقظ . . .

يحاول أن يصرخ ، فيفشل في إيقاظ نفسه مرةً بعد مرة .

يُدعى الشعب ليختار ممثليه تحت قبة البرلمان ، فيختار النثار كله من أصحاب اللافتات . خطيب مسجد الجامعة يحظى بوفرة هائلة

من الأصوات .

ـ حبيبي شعبنا شعب مؤمن والحمد للّه .

ـ نعم يا أبو زهير . . . نعم .

أساتذة الجامعة يصبحون من ممثّلي الشعب ، ومن الوزراء والرؤساء ، منهم من لا تزال كلمات مدح الزعيم مطبوعة في كتبهم التي يقرأها عربي ، ولايبالي إن كان مطلوباً منه إعادتها في أوراق الامتحان أو تقرير عكسها .

وأقبل رمضان بأماسيه المشبعة طعماً خاصاً مليئاً بالتذكار ، في الجامعة يطوف الطلاب المؤمنون ، في عيونهم غضب مهيّأ . يفحصون المقصف والمطعم والزوايا بحثاً عمّن تسوّل له نفسه شرب الشاي أو التدخين .

(والعصر إن الإنسان لفي خسر)

فضّل عربي الاعتكاف في الفندق ليدخن ويعوض عما فاته من مذاكرة .

لم ير خلع أغراس حديقة الجامعة هذه المرة . وعلم أن الطلاب المؤمنين تصدّوا لأحد المدخنين وضربوه ، فاتحد أعداء الصوم من أعضاء الحزب ومن خصومهم السابقين الشعوبيين وهاجموا المؤمنين .

قيل إن الطلاب المؤمنين استعانوا بقوّات مؤْمنة من خارج حرم الجامعة . وقيل إن هذا غير صحيح ، وإن خصومهم في الواقع جبناء .

ليس مهماً ، فقد خلعت أغراس الجامعة للمرة الثانية ، وانتهت المعركة بأن أخرج المؤمنون أعداءهم وراء الأسوار ، وحرموا عليهم عبورها طيلة شهر رمضان المبارك .

ظل المذيعون يملأون الأثير شتائم وإهانات متبادلة (ملحدون

مخربون . . . الخ .) (عملاء الاستعمار والرجعيون . . . . الخ .) ،
(اللّه أكبر من كبوة الاسلام في . . . . الخ .)

سمع عربي هذا في الشوارع والمطاعم ، ولم يكن له خيار إلا أن يسمع .

ذات فجر ، قال مذيع غاضب إن ممثلي الشعب في البرلمان هم في الواقع خونة وانتهازيون بل وعملاء للاستعمار أيضاً ، وإنهم أخذوا ووضعوا في السجون . أما المقاليد ففي أيدٍ أمينة منذ خرج الجيش ليمارس مهماته الطليعية .

وفرح الشعب كثيراً .

٦

في المقهى كنا نجلس صباحاً ،وفي المقهى كنا نجلس مساءاً . نتحدث في السياسة ونستمع للمذيعين ، لأن في المقهى زبائن غيرنا .

قال ضابط المخابرات :

ـ شهادتك تصبح ورقة تافهه بمجرد أن أخط كلمتين ، هل تعرفهما؟

ولم أجب .

ـ كلمتان فقط «لا أوافق» . . . لا الحكومة ولا أية مؤسسة وظفك لديها . . . مفهوم؟

ـ مفهوم .

ـ ولا تبالي؟

قلت له إنني أبالي جداً ، ولكني لا أهتم بالسياسة . وكرّرت على مسمعه أنني لم أعد حزبياً .

ـ فهمنا . أنا لا أسألك عن نفسك . أسألك عن أعضاء الحزب العاملين . . . أريد قائمةً كاملةً بهم ، وباجتماعاتهم التي تعرفها ، ولا أريد تضليلاً أو معلوماتٍ ناقصة .

قلت له إنني لا أعرفٍ هؤلاء الحزبيين ، نعم كنت أعرفهم ، ولكن حوادث كثيرة مرت وكثيرون لم يعودوا عاملين . . .

ـ تعتقد أنك بمجرد أنك خرجت من البلد أصبحت خارج مراقبتنا .

لا . هل أدلك على تفاصيل حياتك أربع سنوات خارج البلد؟

شكرته وأفدته أنني لا أعتقد شيئاً من هذا القبيل .

ـ والآن هل أنت معنا أم ضدنا؟

قلت له إنني لست مع أحد ضد أحد .

ـ لا . إذا لم تكن معنا فأنت ضدنا . شكراً . هل تحب أن أقدم لك

قائمة كاملة بتفصيلات كل اجتماعاتك واجتماعات غيرك ؟ ـ إنها لدي . . . ولست بحاجة لمساعدتك . انتهت المقابلة .

أنا واثق من أن كامل التفصيلات متوفرة لديه . ليست هذه هي المسألة . لا . إنه مثل زميله في المهنة هناك ، ورغم عداوتهما الظاهرة . إنهما معاً يتدخلان في شؤوني الخاصة .

لم يكن الشباب متفقين على حلٍّ لقضية فلسطين . «إنها في السويداء من القلب» ، قال المذيع ولم يشرح .

كان الشباب متنبهين لموضوع الدعاية العالمية : (ظهرنا للعالم وكأننا متوحشون ، نلقي بالأطفال إلى البحر . يجب أن نركز على ازالة الكيان العدواني لإسرائيل) . ولكن كيف ؟ لم يشرحوا الأمر بالتفصيل .

بالطبع لم يكونوا يتحدثون طيلة الوقت عن فلسطين . فهناك الورق والنرد وبعضهم يمارس الشطرنج . ولم يكونوا راضين عن أقوال المذيعين . إلا أن الشباب لم يشرحوا الأمر بالتفصيل .

وهنا مات أبي .

سرت إشاعة بين الشباب في المقهى أن المواطن عربي يكتب رواية ، فأتى بعض عرفائهم ووقفوا على عربي ، وسألوه عن صحة الأقاويل .

خجل قليلاً ، وأكد أنه يكتب شيئاً غامضاً لا يدري ماذا يسميه .

فحقّقوا معه حول السبب الذي يدعوه لكتابة مثل هذا الشيء ما دام غامضاً .

قال : أكتبه لأنه يزعجني .

فأقبلوا يفتشون مخطوطته الصغيرة ، وأتوا عليها بسرعة ثم تحلقوا حوله .

ـ جميل ، جميل . ولكن هل تلاحظ عدم التماسك في بناء روايتك ؟

ـ نعم . . هذا الشيء غير متماسك .

ـ أعد النظر ، ثم . . . إنك تقسر التاريخ قسراً عليها .

حاول عربي أن يوضح لهؤلاء السادة أنه ما أحب القسر أبداً . وحكى لهم قصة عصفور صغير دخل عبر بواري الصوبة حتى اسود ريشه تماماً .

«كان لاجئاً . قال عربي ببشاشة حزينة . «وكانت رجله مكسوره . واقترحت أمي أن تشويه لي . فحملته ووضعته على شجرة الكرمة العارية . أتعرفون ما حدث له بعد أيها السادة؟»

ـ لا .

ـ لقد جرشته قطّة بين أسنانها .

ـ قصة قد تحدث ، ولكن . . .

ـ قصةٌ حدثت ياسيدي ، ما الذي تعنيه بقولك «قد تحدث» .

ـ نعم . . نعم . ولكن لا علاقة لها بالموضوع .

ـ لها ، فقد أزعجتني القطة بتصرفها . . .

كان فمه مليئاً بالزبد ، وكان يشتمني ويشتم أمه ويطوح بيديه في الهواء صارخاً «تعهدتك ياكلب!» ، لم يضرب أحداً . هم بأن يضرب وتوقف .

حدق بي وعيناه بارزتان :

ـ دجّال . قل أنك تريد الفرس والبارودة .
ـ لا أريد أياً منهما . . . لكن فكر بالنساء .
ـ هل أنت موكّل بالنساء ؟ دجال .
كنا قد عدنا من المقبرة للتو ، حيث أودعنا جثمان الرجل الهرم .
وها إنّا بدأنا التصايح .
وأقبلت أمي من المطبخ وسمعت أصواتنا ، فأنزلت دموعها على وجنتيها المترهلتين :
ـ هذا بيتي ، سجّلوه باسمي .
ـ يا بنت الكلب ، من أين لك البيت؟
أنزلت مزيداً من دموعها وحملقت بغرابة ، فخشيتُ انها قد تجن . .
ـ أنت لا تعرف اللّه . هذا بيتي . مهري .
قالت بكلام متقطع مثل كلام الأطفال حين يبكون . وشتمها من جديد ، وذهب ليؤدي الصلاة .
ظلت أمي تهذر وتبكي . قالت إن صلاته غير مقبولة وإنه حين كان سكيراً كان يعرف الله أكثر . وعجبت لأ نها تستطيع أن تفكر بوضوح . تريد بيتها .
سيظلون يتصايحون شهراً بأكمله إذا احتاج الأمر . إلى الجحيم بالنساء وبالفرس والبارودة . (باب الواد وأزيز الرصاص) .
كذّابون منافقون .
قلت له إنه يستطيع أخذ الفرس والبارودة . هشّ وجهه ، وأعلن أنه لن يهضم حق أحد ، وأنه ليس دنيئاً ليظلم النساء . أكدت له ثقتي ، واتفقنا على تسوية أمر التركة فيما بعد . ما الذي سيفعله بالفرس؟
ثم نفضت السؤال عن رأسي ـ فليفعل بها ما يشاء .

٧

ساءت الامور منذ زمان .

وما يدريني ، فلعلها لم تكن حسنةً في أي يوم .

الرجل الممتاز ناشر «لا اله إلا اللّه» تخيطون عليه جلد بقرة . استراتيجيته هي النصر . ولماذا جلد بقرة؟ هل كان ضرورياً؟ منذ زمان . رأى الرجل هذا فعافه وعاف نفسه .«أقتلوني» صرخ بهم ، «تؤجروا بي وأكن شهيداً» ، فأشاحوا عنه مشفقين . . .«لوثة في العقل» قالوا .

ثم رأوا أن الأمر أسوأ من لوثة فقالوا : والله نقتله . وفعلوا . لا بأس . لا علاقة .

قدم الجنرال التتري (استراتيجيته هي النصر) ، وكان في الواقع متأخراً عن الموعد .

وخرج الخليفة ممتقع الوجه ، وسلمه المفاتيح .لا تذكر كتب التاريخ فيما إذا كان الجنرال التتري قد أمسك بذقن الخليفة مداعباً .

لكننا لا نعتقد أنه فعل .لا بل إن الجنرال تكرَّم وأعطى الأمان للأرواح والأموال . وليس صحيحاً ما يروى من أن جنوده قد رموا إلى النهر بمكتبة المدينة .وليس صحيحاً أن ماء النهر قد اسودّ ثلاثة أيام بكاملها .

هب أن هذا صحيح ، ألم يعد ماء النهر صافياً بعد تلك الأيام الثلاثة؟

ـ ثلاثة أيام لا غير .

على الجسر المحطم كانوا يعبرون . الجندي لم يعبر معهم ، الجندي ميّت منذ ثلاثة أيام . الجندي ملقىً بكامل ملابسه الرسمية الصفراء

بجانب الجسر . حذاؤه الثقيل لا يزال يلمع . ثلاثة أيام . رائحته فظيعة . غير أن حذاءه الثقيل يلمع .

وجنته على الأرض .لم أر عينيه . ربما كانتا مفتوحتين .لم أرهما . عندما لا يكون الجندي ميتاً يأتي في الظهيرة حاملاً البطاطا والبندورة والبصل .

الجسر فوق النهر . لا مزيد من البطاطا . الظهر يأتي والجندي بجانب الجسر .

مرةً سمعت مذيعاً يقول : إغضب يا أخي .

ذلك النهار . . .

استيقظ المواطن عربي متأخراً كعادته . من تحت اللحاف رأى أشياء الغرفة . الغرفة صامتة . ليس مطلوباً لأية وظيفة ، فبقي يجيل ببصره . وأحس برجليه تحت اللحاف . عضوان ليس مطلوباً منهما القيام . وأحس بطعم فمه ممتقعاً بفعل التدخين ، فذكَّر نفسه بأن عليه مراقبة هذه الناحية .

حاول أن يقسر نفسه على التفكير بجهاز الترانزستور . إنهم يملأون الأثير بالصراخ . شهادتك تصبح ورقة تافهة بمجرد أن أخط كلمتين . من الضروري إقناعه بتغيير الكلمتين إلى واحدة . يقال بأن هناك سياسة جديدة تتعلق بالاضبارات . يخلط الشباب هذا بالقضية الكبرى وبالتقارب العربي . . . من الضروري أن توجد سياسة جديدة ـ لقد عفّنّا . . . حقاً إن الأمور متأزمة . . . كأنها ستظل متأزمة . ما الذي عناه الجنرال بوعيده . وقح متبجح . استراتيجيته هي النصر . اللعنة عليهم .

مدَّ عربي يده وجذب الترانزستور : كان العالم مخبوطاً بعضه على بعض . (إذن فقد وقعت أخيراً) .

مضى إلى دورة المياه وهو يحمل الترانزستور بيده . لم يستطيع أن يفارقه لحظة . صنع قهوة وهو يستمع إلى البيانات الحارة والأرقام العظيمة .

(لا . . . يجب أن أتحرك .)

خلع المواطن عربي بيجامته على عجل . لم يحلق ذقنه . قرر أخيراً أنه لا بد أن يتخلى عن الترانزستور . سيستمع إلى البيانات عند حمزه . لا يمكن أن يكون نائماً الآن . أبوه يوقظه عندما تحدث أمورٌ مهمة .

رأى الشمس متوهجة ورأى المواطنين يتراكضون . الموسيقى تملأ الشوارع والناس يتحدثون بفرح وصخب . . . واللّه لقد وقعت أخيراً .

استقبله حمزه صارخاً كهنديٍّ أحمر . ليس نائماً بل أشدّ يقظة من الشيطان .تبادلا القبل . وجلسا يستمعان إلى البيانات والأناشيد .

تبادلنا الجمل المشجعة والفرحة . كنا نصفق بعد كل بيان جديد ، وبحثنا عن خارطة لنلاحق بعض الانتصارات البرية . . . فما وجدنا إلا واحدة صغيرة لم تف بالغرض .

ثم أعلن حمزه أنه لا يستطيع الجلوس هكذا ، واقترح أن نتحرك ، فوافقت فوراً .

عبرنا الساحة الرئيسية متدافعين مع الجموع الراكضة ، وأصوات الإذاعات المختلطة تملأ الفضاء . اقترح حمزه أن نذهب لزيارة صديقنا

عيسى في وزارة الإعلام ، فوافقت .

هذه المرة سيخوض أخي حرباً مختلفة . سعيدٌ أنني أعطيته الفرس والبارودة . مع أنه باعهما .

استقبلنا عيسى راقصاً . تبادلنا معه أيضاً بفرح ، وجلسنا نستمع للترانزستور . ودخنّا كثيراً ، حتى إننا اضطررنا لارسال أحد السعاة ليشتري لنا مزيداً من السجاير .

ثم إن الوزير دعا الموظفين لاجتماع عام ، فذهب عيسى ، وفهم أن مهمة رجل الإعلام لا تقل عن مهمة الجندي في الجبهة . عاد عيسى وأخبرنا بذلك . واستاء حمزه لأن تسارع الأرقام قد أصبح أبطأ . . . وأفهمه عيسى بأن المسألة ليست لعبة ، وأن هذه الانتصارات كافية جداً .

ثم إن أصوات المذيعين تعبت ، فانخفض صراخهم قليلاً ، غير أن معنوياتنا ظلت قوية . واقترحت على حمزه أن نتحرك فوافق .

رأينا الناس يتدافعون على المخابز ، فتدافعنا ، واشترينا كميات إضافية من الخبز ولم نشتر خضروات .

أشرت لحمزه فسأل :

ـ طائراتهم أم طائراتنا؟

ـ طائراتهم .

ـ غير معقول .

وأخيراً سمعنا صوت الزامور ، كانت الطائرات قد بدأت تضرب المطار ورأينا أعمدة الدخان السوداء تتصاعد . غير أننا لم نسمع أصواتاً . ركضنا طويلاً لنجد أول مكان نلجأ إليه . مدخل عيادة طبيب . انحشرنا مع خليط من المواطنين . «غارة تجريبية» ، أوضح رجل في الأربعين . وحين قلت له إنها حقيقيّة ، صرخ غاضباً وطلب مني أن أكف عن نشر الإشاعات . . . . وصَمَتُّ .

ثم سمعنا الزامور يعلن الأمان فتراكضنا . غير أن الطائرات ظهرت

مرة أخرى . وسمعنا الزامور من جديد ولم نستجب هذه المرة . كان القصف بعيداً .

وقصد كل منا بيته .

٨

بعد أن تم الأمر ،

سار المواطن عربي في الشوارع هائماً دون قصد ، متأرجحاً كذبابة دائخة . شاهد السيارات العسكرية العائدة ملطخة بالوحول ، وفهم أن هذا قد تمَّ للتمويه . معظم السيارات هي من الشاحنات ، تحمل جنوداً صامتين مقاربين ما بين عيونهم . قليلاً ما رأى سيارات محاربة . سمع أحد الجنود الذاهلين يحاول أن يوضح الأمر لسائق سيارة مدنيّة (الطيارات يا عمي ، الطائرات . . .)

وعربي نفسه حلم كثيراً بالطيارات . ورأى أن أحد الجنود الهابطين بمظلة يسقط فوق صحن الدار . . . رغم أن عربياً سُمّر مكانه ولم يفعل شيئاً . فقد ضربه الجندي بحذائه الثقيل على وجهه . . . وسقط عربي أرضاً .

وفي الأيام اللاحقة حاول الناس جميعاً أن يستعملوا ما في رؤوسهم ليفهموا كل هذا . وتحدثوا ، بعضهم مع بعض ، وتحدثوا إلى السيد عربي كثيراً حول الأمور الحربية .

وأوضح المذيع أن البترول هو عصب الاستعمار ، وأكد أنه سلاح عظيم . وحاول عربي أن يفهم صلة هذا بالموضوع . . . ولم يفهم .

لم يفهم المواطن عربي هذه الناحية .

وذات ليلة ، في غرفتي ، بقيت وحدي .

«مالي نفس» ، يقول الواحد منهم في قريتنا ، عندما لا يكون له رغبة في الطعام . كنت أعتقد على الدوام أنها تعني عدم الرغبة ، لا في الطعام وحسب ، بل في أشياء كثيرة أخرى أيضاً .

لم أتناول طعام الغذاء . لم يكن لي نفس . وعوضاً . نمت ساعات الظهيرة وجزءاً كبيراً من ساعات العصر .

لا أرغب في الانضمام إليهم في المقهى . لا أريد أن أرى ورق اللعب ولا طاولة النرد . أبداً لا أريد .

لدي بعض ما يؤكل . خبز ولبن مصفى وبعض الزيتون . وضعت إبريق الشاي على السخان الكهربائي . إنه بطئ جداً ، وهو الأداة الوحيدة المتوفرة .

إنسان كامل نام يحلم في النهار .

حاولت أن أصرف نفسي عن التفكير بهذا متشاغلا بتنظيف الطاولة الخشبية وإعادة ترتيب السر .

أوضح لي ضابط المخابرات أنهم غير مهتمين بإعادة النظر فيما يتعلق بالاضبارات ، وأكد لي أن أحداً لا يحقد على أحد . وكل ما هناك (أنك لا تستطيع أن تجد وظيفة يا عربي . فكما تعلم ضاع نصف وطننا) . . . وقال لي إنه بمرور الزمن لا بد ستحل مشاكل الاضبارات ، وأكد لي أنه شخصياً قد سئم من الاضبارات .

رأيت من النافذة أضواء العاصمة تتماوج . إنها بعيدة . لا أحب هذا الوقت . لقد انتهى النهار ، وهذا وقتٌ هدفه الوحيد أن تكيِّف عينيك وروحك لليّل .

لعله سئم الاضبارات . ما همّ ؟ إنه الآن وجميع ضباط المخابرات وسواهم ونظائرهم تحت تلك الأضواء ، لهم بيوت وعمل وزوجات .

حاولت أن أنبذ هذا أيضاً عن فكري .

أعدت النظر في مجلة قرأتها . استعرضت صور النساء ، الفساتين تنحسر عن أفخاذهن . لا يحدث هذا عبثاً . إنها حركة مدروسة ، جزء من خطة هدفها النصر .

المهم أن تكون خطتك ناجحة .

سؤال : كيف قبلت أن تمثلي دور غانية صهونية ؟

جواب : من أجل وطني أنا قبلت هذا الدور ـ أول الأمر خفت على صورتي في ذهن جمهوري الحبيب . ولكن عدت وقلت لنفسي إن الجمهور سيفهم . . الخ . . . كشف مخططاته . . الخ . . .

ألقيت بالمجلة جانباً .

أخيراً جهز الشاي . وضعت الصحنين والشاي فوق الطاولة . جررت الكرسي . وقبل أن أبدأ جاءت ذبابة وحطت على اللبن . طردتها بحركة من كفي ، فحامت وحطت ثانية على اللبن .

وقع بصري على منديل التنشيف ، ليس نظيفاً ، غير أنني تقززت . أقتلها بالحذاء؟ لا .

ذبابة حقيرة في الليل ، حتى في الليل .

ضربتها بكفي على الطاولة فقتلتها . وأزحت الطعام مبقياً الشاي فقط .

ودخنت سيجارة . (شهادتك تصبح ورقة تافهة . . تافهة .) ما هو الشئ الذي لم يصبح تافهاً؟

في أحلامه ضاجع فتاةً ثم أكتشف أنها ميتة . كاد يجن وهو نائم . . . ميتة .

في أحلامه تحدث مع نفسه كما الآن . . . ومات مرة بعد مرة . . . وعاد فَصَحَا . لماذا ؟

فكر بالموضوع على أنه دفتر تجاري . أين حساب الربح وأين حساب الخسارة ؟

لقد جرّه المحارب إلى ما أسماه عملية تصفية التركة ، وبقي

يحسب له بأرقام تقنع الشياطين ، وقسّم حسب الشريعة . . . وطرح الديون . . . مصاريف الجامعة . . . فإذا رصيد حصته مدين .

دائماً هذا الرصيد مدين .

ستكون أعظم خدعة لو كان الموت في الأحلام . خدعة عظيمة بعد تلك السنوات الطويلة من الأحلام .

غادر غرفته هابطاً المدينة . التقى بالأضواء والحركة ، لكنه ظل هناك بعيداً . وراء الزجاج رجل سمين يشتري كنافة . . . شابان يشتمان فيلماً . . . إمرأة غير جميلة تعبر الشارع . إلى أين تمضي؟ إلى أين يمضون جميعاً ؟

(طلبتَ علبتين اثنتين ـ أستاذ؟) ـ حدجني من وراء نظارتيه . (نعم علبتين . .) نقدته ثلاثة شلنات . وأعاد لي قطعتين حمراوين . لمست معدنهما .

في غرفته وضع العلبتين فوق الطاولة . لم يعد عقله يفكر بشيء . غير أن معدته كانت تختبط لقلة الطعام وكثرة التدخين . . . ولمرارة فمه الجاف .

الحقيبة بارزة من تحت سريره . سطحها مغبّر . الخزانة الصغيرة مفتوحة ، وعلى حافة بابها بنطال آخر يتدلى . الغبار متوفر على الارض . وأينما حطَّ نظره .

أخرج الحبات من الأنبوبة الورقية . وكدَّسها فوق المجلة . قام وأحضر الكأس نصف مليئة بالماء ، وأسقط الحبات ثم حركها .

دارت الندف البيضاء واختبطت على سطح الكأس الداخلي . كفَّ عن التحريك فترسبت الندف بسرعة .

ليس على عجلة . . . وضع الكأس على الأرض وجلس على السرير يدخن مراقباً الطبقة الكلسية البيضاء في قاع الكأس . ليس له خبرة سابقة في هذا الوضع ، فبقي ينظر .

في خياله حاول أن يشرب المزيج دفعة واحدة . . . حرّكه ورأى الندف المتراكضة تلطم الزجاج ، همَّ أن يفعل . . .
وشعر بمعدته تتكوّم متحجرة في رأس صدره . وتصلّبت يده تماماً كما كانت تتشنج في الأحلام .

رغبت في سماع شيء ـ أي شيء . . . تناولت الترانزستور ، ورأيت يدي ترتعش . فتحته وألقيته على السرير .
(حتى صلاة العشاء مع هذه التقاسيم على الناي . .)
ليست هذه موسيقى . . . إنها شيء مختلف . نَفَس إنسان عبر قصبة ، ليست لتمتعك ، بل لتغرس شيئاً مدبّباً في القلب .
كانت أمي تكرر على مسمعي قصة مولدي . أكدت لي أنها تركتني أسبوعاً كاملاً أبكي دون أن تعنى بي ، وأن جارتنا العجوز تعهدتني باليانسون ، وإلا لما كان هنا الآن عربي .
لم يعد أبي من الحجّ في موعده مع مجموعة الحجاج .قيل إنه ضل الطريق وقتل . ظلت أمي تندبه . لم تكن لها رغبة في الطفل . . .
اللّه اكبر اللّه اكبر . فكرت دائماً بأن هذا عمل يخلو من اللطف ، تماماً كسلخ الجماجم .
«مرحبا بذكر اللّه» ، كانت أمي تقول عند سماع الآذان .
وكانت تردد دائماً «لابد للحزينة من يوم تفرح به» ، ولم أرها تفرح .

أطفأ سيجارته على أرض الغرفة . ثم قام وحمل الكأس ، ومضى به إلى المغسلة ، حيث سكبه وفتح الصنبور .
عاد واضطجع على السرير .
«طاف رجل معظم بلاد العالم ، ورأى كثيراً من الكوراث ، إلا أنه لم ير شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي» ، هكذا قال .

٩

في حزيران ، في العاشر من حزيران هبطت إلى نهر الأردن ، لأرى ما الذي حدث لبلادي . على طول الطريق كانت السيارات الحربية محطمة محروقة . قبيل الوصول للنهر رأيت على قارعة الطريق بغلاً مقتولاً ، وكان منفوخاً بشكل عجيب .

ثم رأيت الجسر المحطم ، ورأيت خليطاً من الناس ، وكان هناك لغط . الآن أذكر كلمة من كل اللغط . نعم ، هناك أصوات وحركة لغير ما هدف واضح . لا يرى المرء ما الذي ينجز هنا .

كان الجسر محطماً بشكل فظيع ، إلا أن أجزاءه ما زالت متماسكة . وكانت هناك امرأة تحاول العبور ، وهي تتسلق الحطام وتمسك بما كان مقبضاً للجسر . وكانت شديدة الخوف من أن تسقط . إنني أذكر وجهها الصغير حتى الآن . ورغم أنني رأيت وجهاً صغيراً كهذا مصفَرّاً تماماً كقشرة ليمونة دون رواء القشرة ، كان الناس ينظرون إليها بيأس ثم يتحولون .

وقفت على آخر نقطة صالحة للوقوف في الجسر . الآن أعرف أنني كنت أبحث عن آخر شبرٍ مما تبقى وطناً لي . وكنت حريصاً أن أقف على آخر جزء يمكن الوقوفُ عليه .

رأيت النهر ، ورأيت قمم الجبال العالية البعيدة . لم أر جنوداً .

وبحثت عبثاً . كنت واثقاً أنهم لا بد يرونني من هناك ولا أراهم .

نظرت عبر الجسر . لم أعد أهتم بالناس . رأيت الأرض ذات الرائحة الحارة . كثيراً ما عبرت هذا الجسر إلى الضفة الأخرى هناك . وبدأت أنظر إلى المعالم الصغيرة : شجرة شوكية . . . حجر عادي . . . تعمّدت أن أراها .

ثم انتبهت أنني منزعج طوال الوقفة . واستبنتُ رائحة كريهة ، ولم أجد مصدرها . ثم انسحبت خلفاً ، وانثنيت إلى الزاوية اليمنى .

وازدادت الرائحة . هنا رأيت تحت منخلٍ مشبّكٍ جندياً ملقىً بكامل ملابسه .

في طريق العودة صُعُداً بين الجبال حلَّ الليل . كنا نتحدث بكلمات قليلة غير مستكملة المعنى . ربما لطبيعة المكان ، أو لأنه الليل . ربما لسبب آخر لا أدريه . كانت الكلمات تدوي وكأنما تسمع مضاعفة . ولم يحدث أن عرفت ليلاً كهذا . شيء ما فيه يقرّبه من الليلة الأخيرة للبشرية .

حاولت تقريب الأمر لنفسي ، ولم أفهم . نطقتُ بكلمات بصوت عالٍ «هزيمة . هذا ما هي» . ولم أفهم . ليست هزيمةً بل شيءٌ آخر .

رأيت مرة في عرض الطريق قطة مدهومة . الدم على أذنها ، وجانب من وجهها ، وهي تتحرك في دائرة لا يزيد قطرها عن متر ، وعيناها في نفس الوضع ، وتظل تدور . لم أدر ماذا كانت ترى ، وماذا كانت تريد .

وكان هناك مذياع في كل مكان ، ولم أفهم لماذا يجب أن يتكلم مذيعونا بعد . وخيل إلي أن المسألة كلها سؤال واحد : شعب نحن أم حشيّة قشّ يتدرب عليها هواة الملاكمة ، منذ هولاكو حتى هذا الجنرال الأخير .

ما الذي يسمونه ؟ ـ جيش الدفاع .

حتى في هذا يطؤوننا . ويالها من سخرية . غثاثة وكذب . كل ما يقال غثاثة وكذب ، لا أريد أن أراها ، ولا أن أسمعها .

إنها لشهورٌ حَرِيّةٌ باسم عصور الظلمة . إنني أتحدث عما أسدل في جمجمة واحدة . وأعتقد أنها مسألة شخصية بحت . فهنا مواطن

أراد على الدوام أن تحمل روحه وشم الدولة القوية . ولم يكن ممكناً أن يقدم لنفسه أيّما سلوان . شعبٌ أم حشيّة قشّ ؟

تربّع الجنرال داخل تلك الجمجمة . كان بوسعه أن يحلّ عقدة عينه . ويمد رجليه ويستريح .ليس في بيته ،ولا في مكتبه العسكري المتحف المرصع برسوم النصر . . . بل داخل جمجمة . وكان بوسع الجنرال أن يُري رباط عينه الأسود ، وأن يسخَر من العيون السليمة ، ويقرر بأن الأصل في العيون أن تكون عوراء . ولم يكن هناك صوت يناقشه . في تلك الجمجمة .

طاف رجلٌ معظم بلاد العالم ، ورأى كثيراً من الكوراث ، إلا أنه لم ير شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي . وبدا وضحاً أن هذا الشعب قد استحال كائناً واحداً ضخماً ومجروحاً يترنح ببطء . ولم يكن قط ذهولٌ أبعد من هذا .

(والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .)

منذ ألف لم يبك عربي . مرّت به كل مذلات التاريخ والأحداث ، واحداً تلو الآخر . معزولة تافهة مرت كلها . لم يبك عربي .

ترك الفلاحون قراهم . ربات البيوت خرجن بملابس النوم . الرجال والأطفال بعضهم دون أحذية . . . خرجوا جميعاً . . . كانت الأنوار مطفأة ، وجعلوا يتكاثرون . وكانوا يصيحون بكلام غير مفهوم . ثم لم يعرفوا ماذا يصيحون أكثر ، فانخرطوا يبكون .

ماالذي حدث له ؟

في لحظة واحدة نفضت خياله . دون صور ، دون صور ـ كل مذلاّت

تاريخه . دون صور ، لكنها هناك . الف الف مرةٍ دُهم هذا الجسد . . . ومرّت فوقه الأقوامِ وركلته .

لا يبكي زعيماً . ولا يدري ما الذي يبكيه .

بل دفن رأسه في الفراش وبدأ ينتحب . سمع صوته المتقطع الأكثر جراحاً من أية قطة ، فهاله الأمر ، واجتاحتهُ عاصفةٌ هائلة من البكاء وجعل ينتحب بصوت أعلى . ولم يعد صوته متقطعاً فَعَلا نحيبه . وقبض فراشه وهو خائف من أن لا شيء هناك يُقبض . . فقبض أشدَّ وبكى أكثر . وزالت من ذهنه كل صورة إلا وجوده هناك في فراشه . وكان الوقت ليلا ، كان قد جمع في جسده كل مذلات تاريخه فانتحب أكثر وسمع نفسه فازداد انتحاباً .

وبعد ،

فقد آن لكل هذا أن ينتهي ، كما تنتهي كل حقارة أخرى . قد يكون شعبي أحمق ، تماماً كما يعرض المعرضون . وقد يكون أن شعبي ذهل إلى هذا الحد ، وهم يضربونه ، وظن أن الأمر كله لا يصدق . وقد تكون مسألة شخصية بحت لمواطن واحد عكف على نفسه محاولاً أن يفهم موضعه من التاريخ .

كان معلّمنا يشرح لنا حكاية اوروبا كأنه يراها . وكان يسمي الفترة ما بين القرنين الخامس والعاشر ميلادي «عصور الظلمة» وكان للكلمتين رنين غريب . وأعتقد الآن أن مصدر ذلك الرنين هو الفخر . الفخر الإنساني الكلي . . . فأنت حين تحقّر خمسة قرون كاملة ، وتختزلها بكلمتين مذلتين «عصور الظلمة» ، تفكر من حيث تدري أو لا تدري بالنور .

عصور الظلمة ، أي أنه كان هناك نور وانطفأ خمسة قرون ، ثم عاد واشتعل ، وأنت فخور بهذا .

(ماعسى أن يهمني أمرهم ؟)

عمن يتحدث الجنرال ؟ عن شعبي وعني أنا . من الذي سأله الاهتمام بأمرنا ؟

رأيته نافخ الصدر ورأيت عينه فاحتقرته . رأيت شعبي ، رأيت الصحراء والجنود الهائمين عطاشا ، ورأيت الصيف ، ورأيت جنود الجنرال يلوحون بالماء ، ثم يخفونه ويضحكون . رأيت شعبي يسقط باسطاً يديه على الرمل الحار ، ومَحَضته حباً عذباً ، ليس يكبره إلا القسوة المرة التي محضت نفسي وشعبي شهور الظلمة الطويلة .

وليست المسألة أن الجنرال صغير كذبابة ، بل إنه قذر كذبابة ، ولا أن هذا الشعب محارب أم لا .

(حاربوا أفضل من سنة ٥٦ . . . يتكرم الجنرال فيقول .)

ولكن المسألة في أنه شعب انتدب ليحارب من أجل أن يظل الرنين الغريب ، كما قال معلم التاريخ للصغار : الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس والعاشر ميلادي هي المعروفة باسم «عصور الظلمة» .

صبـاح الـديك

صياح الديك

(١)

في الدقائق الأخيرة من النهار فتحت البوابة وخرج السجين ، إنه رجل مشعث نحيف البنية ، يتقدم بخطى بطيئة متفحصاً ما حوله . لم يطمئن لهذا الشحوب الذي يغلل وجه الفضاء . لون رمادي لا يساعده على وضوح الرؤية ، فأخفض عينيه وأعاد النظر إلى الشجيرات الصغيرة التي تحف بمسيرته ، وتمد ظلالاً باهتة طويلة ، فبدا المنظر بمجمله ، غير حقيقي ، أشبه بلوحة طبيعية كئيبة . وسارع من خطاه ، والحقيبة القماشية الخفيفة تلامس في حركتها فخذه الأيسر ، إنها تكاد تكون خاوية فيشعر بعدم ضرورتها .

عما قليل سيدخن لفيفة من عثمان . حتى في هذه الرغبة هو غير متعجّل . لقد بدأ يستقبل العالم الخارجي تدريجياً . صوت حركة السير وزعيق بعيد ، فيما هو يتقدم من السور الضارب حول المساحات المشوشة .

عثمان يضحك ويلوح بيده ، وقرص الشمس يكاد يسقط وراء القلعة العالية . وقت غير مناسب لخروج سجين . وقت متأخر جداً . غير أنه نفض الفكرة من رأسه وحث خطاه ، وأصدر صوت ضحكة غريبة ، فيما راح يعانق عثمان مراوحا بين الكتفين ، ويُسمع طقطقة القبل المتبادلة ، وعثمان يكرّر (الحمد لله على السلامة) . إلى يساره رأى صفاً من الحوانيت . أزرار الكهرباء تتدلّى فوق الفواكه والخضروات

المنضّده ، والتفت غرباً ، فإذا الشمس قد سقطت نهائياً .

عثمان قصير سمين ، ويرتدي بزّة غامقة ، وقميصاً شديد البياض . لم يكترث السجين بهذا . إنهما صديقان قديمان ، قادا حياة متشابهة في السجن . ولكن لماذا هو منقبض دونما سبب واضح .

قال عثمان :

ـ ما أشد حاجة الخارج من السجن إلى سيجارة . دخّن .

ـ نعم ، نعم .

قال السجين ، وابتدأ يملأ رئتيه دخاناً ويفرغهما . إن عثمان لأقصر قامة مما يظن ولعل هذا عائد إلى سمنته ، ثم إن شعر حاجبيه كثيف جداً .

وقال عثمان مشيراً بكفه :

ـ سيارتي . ستعتاد عليها مع الزمن .

دخل السجين ، وأغلق عثمان الأبواب . أضواء السوق هنا وهّاجة ، حتى لتكاد تنسى وجود العتمة ، أما حين رفع عينيه إلى الجبال المليئة بالبيوت ، والتي أضاءت ازراراً كهربائية ، فقد شعر أن الغلبة للعتمة ، وأن تلك الأزرار تجاهد بيأس في وجه العتمة الوافدة .

ـ لحظة واحدة .

قال عثمان .

في الواجهة الزجاجية كتب مرتّبة . على الجانبين تتدلى الجرائد والمجلات المغلّفة بصور النساء ، والضوء الابيض ينطفيء ويعود في قلب النيون .

ـ لا أستطيع النوم دون قراءة جريدة .

قال عثمان . وأضاء زراً صغيراً وقدّم الجريدة .

ـ اتريد ان تقرأ اخبار الدنيا؟؟

ـ نعم لا بأس .

قال السجين ، ومرّ بالعنوان الأكبر فالأصغر . ثمة كثير من القلاقل في الدينا ، ولإيضاح ذلك ، ها هنا صورتان عن قتلى وجرحى ، إنه يزداد انقباضاً .

من جديد توقف عثمان ، واستأذن للحظة أخرى . رأى السجين الجزار يضرب بساطور ضخم جسد خروف متدلياً من خطاف معدني ، وعاد عثمان يحمل ظرفاً .

ـ بيض غنم لإفطار غادة .

قال عثمان . واستأنف :

ـ غداً عندما تتزوج تعرف هذه الأشياء . مجلة المرأة وإفطار المرأة وحليب الطفل و . . . و . . . ياسيدي . . . أكمل عثمان تعداده بضحكة رد عليها السجين بضحكة ، وعجب لهذه الاصوات التي يتوجب عليه إصدارها بين الحين والحين . وسارت العربة .

لو أن الوقت صباح ، إذن لكان كل شئ أفضل . في الصباح ثمَّة فسحةٌ للتفكير والتدبر ، بدل أن يقاد هكذا بقسر ، ينتظر كلما توقف عثمان ، ويضحك كلما ضحك . يا لها من بلبلة يستقبل بها العالم الخارجي . وعثمان يقول :

ـ العمل أولاً ، ومن ثم الزواج . كل صعوبة تذلل ، ولكن عليك ان تبدأ سريعاً .

ـ نعم طبعاً .

قال السجين وقلب الجريدة وقرأ نتفاً أخرى .

ـ هل تصدق؟ شهر واحد ومع ذلك يحمل ملامحي كاملة .

كان هذا بصدد مَقبل طفل عثمان الأول .

ـ جميل . جميل جداً .

قال السجين ، وقال عثمان .

ـ لا تعرف جمال الأبوة إلاّ عندما تصبح أبا . هذه خبرتي .

ـ بالتأكيد .

طمأن السجين . حقاً إن خبرات عثمان كبيرة .

وحين فتح الباب عن مجال من الضوء الساطع وهي واقفة تقول : (اهلا وسهلا) ومدت ذراعاً عاريةً تنتهي في الكتف المسورة باللون الاسود الملتمع .

الفستان أسود ، والشفتان حمراوان . قال :

ـ أهلاً بك .

عثمان يشير بكفه ، مقدماً أحدهما إلى الآخر بحركة مسرحية ، فيما السجين مرتبك بحقيبته السخيفة . ليته تركها في السجن . ثم يخطو متقدماً إلى الصالون ، في أذنيه اختلاط صوتيهما ، وحين يرى وجهها يبلله ذلك التوهج ، ويروح يبحث عن كلماته التي سيُعدّها .

لوحات تتدلى . مقاعد سماوية اللون . خشب أشقر . طاولات متباينة ، وهرم من التفاح الاحمر في آنية زجاجية . لقد استوعب الصالون بنظرة متجولة ، ثم وضع حقيبته في الزاوية وجلس .

ـ تصرف كأنك في بيتك .

قال عثمان .

ـ بيتك وأكثر .

قالت غادة .

والسجين يكرر : شكراً ، شكراً .

تتحرك في مجال عينيه بذلك الوهج الأسود ، وتتكلم بأسنان بيضاء صغيرة .

ـ كلنا نخرج من السجن أخيراً .

قال عثمان ، وقد شمّر عن ساعده وقدم سيجارة .

ـ نعم بالتأكيد .

قال السجين .

ـ وننسى .

قال عثمان .

ـ ننسى سريعاً . أحياناً ، عندما يرهقني العمل أتذكر السجن كمكان هادئ ـ وأقول لنفسي ـ والله إنها أيام لطيفة .

ـ لطيفة ربما!

هز السجين رأسه متأملاً .

ـ المهم أننا سريعاً ما ننسى .

نفخ عثمان الدخان من منخريه الضيقين ، وهو يكرّر حقيقته البسيطة .

ـ وما هو الشيء الذي لا تنساه؟

ضاحكة قالت غادة ، فضرب عثمان كفاً بكف وقال :

ـ بيض الغنم على الأقل . لا أنساه أبداً .

همَّت غادة إلى الظرف ، وسعت به إلى المطبخ . في مجال أذنيه تنقر الأرض نقرات سوداء متوهجة ، ويلمح هرم التفاح ، ويخشى أن يُمسك متلبساً بالنظر .

هل أن في البيت تهيؤاً خاصاً به أم أن هذا ما يحدث كل مساء؟ الخشب الأشقر يلمع كل مساء ، هرمٌ من التفاح كل مساء؟ ياله من سجين قليل الخبرة .

ـ تعبان؟

تنقره بسؤال فيتراجع بجلسته .

ـ لا أبداً .

أسنانها الصغيرة البيضاء ، وبؤبؤا عينيها ثقيلا السواد ، وهو مرهق بالتأكيد . ليودّ أنّ يسمي لون بشرتها لولا هذا الإحجام الذي يتولاه ، وعيناه تبدآن المسيرة على امتداد ذراعها . بل هو يمضي سائراً وصوت انسكاب الماء في المغسلة ، ونفيف عثمان يأتيه من الداخل . إن منبت كتفها يصب مرة واحدة في بئر فستانها الأسود . وعندما تحركت قليلا ، رأى مطلع استدارة اكثر تألقا ببياضها ، ثم تلك الأضمومة

من شعيرات قصيرة غامضة الظلال ، فرفع عينيه ، والتقى بالبؤبؤين الاسودين ، وتحرك مضطربا في المقعد . إن شفتيها مطبقتان ، ومع ذلك فكأنهما تخفيان ابتسامة سرية .

أقبل عثمان يفرك وجهه بمنشفة بيضاء .

ـ ما رأيك في أن تغسل وجهك؟

سأل عثمان .

ـ يا ليت .

ـ آه . هل تظن نفسك في السجن! أطلب بنفسك . قلنا إنك في بيتك . لا . لا . قم ، ولا تتظاهر بالتأدب مرة ثانية .

أتراه يترنح في مشيته ، أم أنه هكذا ، يظن بنفسه الظنون دون مبرر . إنه حانق ويريد أن ينفرد ليناقش بلبلته . وها هو بدل أن يحاول فهم أسباب ضيقه ، يجول بعينه في المكان ، ويعجب من أن دورة المياه هذه نظيفة أكثر مما يتوقع .

(٢)

الطاولة شقراء ، وفوق لوح الزجاج وضع الطعام . بطل الوجبة هو الديك الجالس في صينية مشوياً حتى الإحمرار ، يشرئبّ عنقه قليلاً لينتهي مطأطئاً ، وفي نهايته مايزال الرأس معلقاً ، مدفون المنقار في المعكرونة الطرية . وتحفّ المعكرونة بجسد الديك من كل جانب . سلطات بيضاء ، سلطات خضراء ، وسلطات حمراء ، وصحون صغيرة أخرى لم يميّز ما فيها .

ـ أعدت لك غادة وجبتها المفضلة .

قال عثمان ، وسحب للسجين مقعداً هو رأس المثلث في الجلسة .

ـ وجبة فاخرة .

قال السجين ، وتناول المنديل الأبيض من يدها ، تأمل الديك التعس يمرغ رأسه في المعكرونة . ديك مهيض الكرامة .

وقال عثمان : ضيّفيه يا غادة ، بدل أن يظل يتأمل .

فانتزعت وركا ، وهي تُميل الديك ، وتحرك منقاره في المعكرونة يمنة ويساراً . ووضعت في صحنه خليطاً من السلطات أيضاً .

ـ وأنت كالعادة تأكلين الصدر .

قال عثمان ، وانتزع لنفسه الورك الآخر . فمزقت صدر الديك وهي تقول :

ـ الصدر أطيب ، مع أن كل الناس يحبون الورك .

الآن وهي تحرك ذراعيها ، رأى السجين منبت كتفها وتلك العتمة المخبوءة ، وراح يزدرد الطعام بصعوبة .

قال عثمان :

ـ كل كما يأكل سجين خرج للتو . وعلى قدر أكلك ترضي غرور غادة .

ـ طعامي طيب . لا أحد يستطيع أن ينكر .

رنين المعدن على الزجاج وأصوات مصمصة العظام ، والألوان ، والوهج الأسود والوهج الأبيض ، وحتى المعكرونة السلسة ، يشعر بمرورها حاداً عبر بلعومه .

قال عثمان :

ـ لا . أكلك لايعجبني . ما بك يا رجل؟

ـ إنني آكل على قدر طاقتي .

قال السجين ، قالت غادة :

ـ أبداً والله . أنت مهموم .

وقال عثمان :

ـ كلنا نخرج من السجن مهمومين . فعلى الرغم مما يسمونه ظلام السجن ، يجد الإنسان نفسه مكفولاً هناك . له مكان . له طعام . أنا أفهمك يا صديقي . طبعاً!!

السجين يسمع ، ويحاول أن يفهم ، وعثمان يستأنف :

ـ ولكن لا تبال كثيراً ، فالسجين سرعان ما ينسى ويبدأ . البداية

صعبة حقاً . أذكر أول عملي مع شركة التأمين . كنت جوّابا أدلف إلى البيوت والمكاتب ، واتحدث ساعات طويلة لأظفر بزبون ، فاظفر بعمولة أتحدث وأتحدث ، وكثيراً ما لا أفوز بغير الخذلان . وأعود مهموماً ، وأظن أن السجن أفضل . خواطر حمقاء! تعلم!

ثم انتبه وقال :

ـ لماذا توقفت . بإمكان من يسمع أن يأكل .

فقالت غادة :

ـ الحديث عن التأمين يقتل الشهية .

ـ أبداً .

قال السجين :

ـ ولكني انتهيت ، شكراً .

قال عثمان وهو ينكش أسنانه :

ـ على راحتك .

وسألت غادة :

ـ تأكل التفاح هنا أم في الصالون؟

ـ ليست بي رغبة في التفاح الآن . هل نؤجله؟

ـ طبعاً . إذن نشرب القهوة هناك . تفضل واغسل يديك .

في الصالون استمر عثمان :

ـ سأتكفل بتدبير عملك في شركتنا ، وهذا يوفر عليك عناء البحث . حتى وطيفة الجوال ليست مفتوحة ببساطة هذه الأيام .

لقد طال العهد عليه منذ غادر السجن . عثمان يعرف كثيراً من الحقائق ، وهو الآن يكاد يبدأ النسيان ، ثم راح يسمع .

ـ الموظف الجواب يشقى ، لأن الناس حمقى ، لا يدركون الأهمية الحيوية للتأمين . كلهم ينجب أطفالاً ، فاذا حدّثت أحدهم عن مستقبل الاولاد ، هز رأسه ، وقال لك : (ما من دابة إلا وعلى الله رزقها) ، نعم ، ولكن الله يحب أن تعمل دوابه من أجل تأمين أرزاق الأولاد .

عثمان ينفث الدخان ، وقد تلبسته حماسة أدهشت السجين ، بل أفزعته قليلاً . من المطبخ تأتي أصوات قرقعة الأواني ، وارتطام بعضها بصفيحة القمامة . لا بد أن رأس الديك قد قذف هناك .

ـ ولكن الموظف الجوّاب الحقيقي لا ييأس ، بل يجرب مرة بعد مرة . إن مهمته تنطوي على شيء من عمل المنوم المغناطيسي . يا طالما تحدثت مع واحد من الحمقى وخذلني ، ثم أعاود الكرة بطريقة أكثر تسللاً إلى القلب ، حتى تسقط منه تلك الجملة الذهبية (جهز البوليصة) ، قد يندم فور موافقته ، ولكن الوقت قد فات . البوليصة سرعان ما تجهز ، والقسط الأول يدفع ، لقد دفع الزبون وتحققت العمولة . المعظم يكف عن الدفع بعد عدة اقساط ، ويخسر ما دفعه ، ولكن ما الذي يهمك أنت؟

أقبلت غادة تحمل صينية القهوة متصاعدة البخار ، وقالت :

ـ حرامٍ . قرقعت دماغه بالتأمين .

ـ طبعاً . ماذا على النساء غير أن يسخّفن أعمال الرجال ، قل لها بالله عليك من أين تأكل وتلبس ، لولا شركة التأمين .

ـ فهمنا ، ولكن يكفي ثماني ساعات للتأمين .

ـ عزيزتي ، الغيورة حتى من شركة زوجها مع أنها في خدمتك .

رنت غادة بضحكة لم يحبّها السجين . لم يحب كل هذا الحديث ، ولا ما يثيره وراحٍ يشرب قهوته ببلادة .

ثم سمع صوتاً كالمواء يأتي من الداخل .

ـ هاها . استيقظ مقبل . أحضريه ليراه صديقنا .

قال عثمان بحماسة .

وعادت غادة تحمل لفيفة فيها مقبل ، وانحنت تقدمه للسجين الذي بوغت ، وتذكر فجأة حديث عثمان عن الطفل .

ثم وازن نفسه وحمل اللفيفة . ما الذيٍ انجب هذان الزوجان؟

وجهه نحيل متطاول ، ولسانه متدلٍ يغلق فمه الباهت ، وعيناه

ثقبان ضيقان .

ـ ما شاء الله . ما شاء الله!

قال السجين ، وسمع كلمات نفاقِهِ غريبة غرابة أحداث الليلة بمجملها .

ـ ملامح والده مئة في المئة؟

قال عثمان .

أجاب السجين ، وأغلق عينيه مرهقاً . ليود فقط أن تعم العتمة المكان وينام .

(٣)

السجين نائم ، والكوابيس تجتاحه .

بدأ الامر بداية مازحة . هو وعثمان في شارعٍ خال . عثمان يعابثه بحركات بهلوانية وضحك صامت . عثمان يخلعُ قصيمه ، ويفك أزرار قميص السجين ، ويختطفه في عملية مبادلة كاريكاتورية ، ثم يركض هارباً . السجين يضحك ، ولا يسمع صوت ضحكه أيضاً . ويكتشف انه متوجس . يحاول اللحاق بعثمان ، ومخاوفه تزداد . إنه غريب هنا ، ويخشى أن يضيع عثمان ، ويرى الآن أن الضباب يكتنف المكان ، ويضاعف من ركضه ، بينما ينأى عثمان ويختفي وراء المنعطف . الحجارة الصغيرة تنهال عليه . مجموعتان من الأولاد تتبادلان قذف الحجارة .

المطر يبدأ بالتساقط . قميص عثمان فضفاض عليه ،وهو لم يغلق أزراره . لم يتطلع الأولاد اليه ، ولم يستطيع أن يبلغهم رجاءه أن يكفوا ، فركض مطأطئا رأسه ، وهلعه لفقد عثمان يزداد . الحجارة تصيب رأسه المبتل . مسح مواضع الوجع بكفه ، ورأى دمه المختلط بالماء واستمر يركض ، انعطف هابطاً بين عدد من البيوت ، ولم يجد أي أثر لعثمان ، وهنا أدرك أنه غريب تماماً فوقف حائراً . تقدمت منه امرأة في منتصف

العمر ، فرجاها أن تدله على طريق إلى قلب المدينة .

ـ أنت غريب؟

قالت له المرأة .

ـ نعم .

فأدخلته بيتها ، وهي تقول أنه بحاجة لأن يجفف ثيابه جلس في غرفة شحيحة . ثم لمح المرأة تجوس هناك غير منتبهة له وكأنها نسيته . لم يستطع أن ينادي ، راح يمأميء محاولاً أن يجد منفذاً ولسانه الضخم يحتبس الصوت . لوح بيده ، واشار إلى فمه فاختفت المرأة دون أن تحس به .

فتح السجين عينيه ، وأدرك أنه نائم في غرفته ، وأنه إنما يحلم . لحظة واحدة ، ثم سقط .

في غرفة واسعة ، شحيحة الاضاءة ، يجلس فوق دكة عالية ورجلاه تتدليان . امرأة جميلة إلى يمينه ، ورجل قصير إلى يساره . يود أن يكلم المرأة ، ولكنه لا يعرفها . دخل رجل طويل يلبس بنطالاً اسود وجاكيتة بيضاء . وقال منحنياً بصورة احتفالية :

ـ ماذا تأكلون؟

التفت السجين يمنه . وفوجئ بأن الذي إلى جانبه ليس إلا دمية كبيرة من البلاستيك . لقد لمحها بهيئتها الجامدة ، وما أن رآها حتى حرّكت عينيها متظاهرة بأنها امرأة . نظر يساراً ، فوجد أن الرجل الطويل بعدُ منحن ، وأنه بلاستيك ، ولكنه تحرك في اللحظة التي سقطت عليه نظرة السجين قائماً مثل الرجال . فزع السجين ، وراح يلتفت هنا وهناك . إن هلعه من تظاهرهم يتضاعف ، لكنه لا يستطيع الفرار .

الآن فتح السجين عينيه لحظة اخرى ، وتأكد من أنه يحلم ، وهو لن يسمح لنفسه بأن يغفو ثانية . إنه خائف جداً . ومن جديد سقط

للعالم السفلي .

إنه في مستشفى طويل أبيض ، يدخل الطبيب ، وهو عملاق حسن الهندام يتخلل الشيب شعره . الأمر الغريب أن رأسه يلمع ، وكأنما دهن بمادة صقيلة جداً .

أمره الطبيب أن يتمدد ويرتاح . كرّر عليه أن يرتاح ولا شئ آخر .

قال السجين :

ـ أنا مستعد لأن أقول قصة حياتي .

قال الطبيب :

ـ لا لا . الوقت مبكر . عليك أن ترتاح فقط .

يحاول السجين أن يرتاح فيما جلس الطبيب عند قدميه ،وبدأ يمازحه بأن يمرر أصابعه على راحتي قدميه ، ومن جديد قال السجين :

ـ أنا مستعد لأن أقول قصة حياتي .

والطبيب يبتسم ، ويزغزغ قدميه . ثم فجأة انتصب ، ودفع الطاولة التي يستلقي عليها السجين ، وهو يقول بوحشية :

ـ بنّجوه .

والسجين يشير بيده . إنه يريد أن يقول قصة حياته .

ـ إفتح فمك .

صرخ به الطبيب ، وهو يسدد حقنة مليئة بالبنج . إن عينيه جاحظتان وأسنانه غليظة . فتح السجين فمه ، ودفع الطبيب الحقنة في لثته السفلى حتى اخترقها .

ـ أسنان غير سليمة .

قالت ممرضة شابة . وبدأوا يكسرون أسنان فكه الأسفل ، والممرضة تنزع الجذور المتبقية بأصابعها .

ولاح الطبيب العملاق ، فرفع السجين إصبعه ، ليوضح أنه مستعد لأن يقول قصة حياته . يلحف بمد إصبعه ، ولا يستطيع كلاماً ، غير أن الطبيب العملاق يمر به دون اكتراث . ورآهم يحضرون كيساً قماشياً

أبيض ، ليدخلوا رأسه ضمنه ، وهو يصرخ دون صوت :
ـ لست مجنوناً . هذا غلط . لست مجنوناً .

وهبّ مستنداً فور أن فتح عينيه . لقد استنفر قواه السريّة ضد السقوط من جديد .

(٤)

لا بد أن عدة ساعات قد مرّت على مولد الصباح . هو لم ينم ثانية إلاّ مع أول خيوط الفجر . إذ ذاك شعر أنه بأمان ، وأن بوسعه أن يغفو .

خطواتها تنقر أرض الصالون ، وصوتها يدندن بأغنية لم يستبنها . من المؤكد أن ضوء الشمس في الخارج قد بلغ النضج . حرك جسمه ، وأصدر سعالاً وهدوء غير صاف يشمله ، نقرتان ونصف إطلالة عبر فتحة الباب .

ـ صباح الخير .

ـ صباحِ الخير .

معتدلاً في جلسته أجاب . وسألته مبتسمة :

ـ تحب الحليب مع القهوة؟

ـ آ . . نعم . . لو سمحت .

انسحبت بإغماضة مبتسمة . مسيرة عنقها إلى الصدر متفتحة تحت جاكيتة البيجاما البيضاء ، المرشومة برسوم زهور صغيرة .

(زنبقة سوداء مضمومة في الليل . قرنفلة متفتحة في الصباح) . سَرّه أن يهتدي إلى هذه الكلمات ، وقال لنفسه إنه ليس بحالة رديئة ، رغم الكوابيس .

أقبلت تحمل كوباً طويلاً يتصاعد منه البخار ، وانحنت قريباً ، فرأى مزيداً من مسيرة عنقها إلى ملتقى النهدين ، فاضطربت موجات لذيذة ترعى جسمه النحيل .

ـ كيف كانت ليلتك؟

ـ آ . . لا بأس . لا بأس .

إنها تجلس على طرف السرير الخشبي ، غير بعيد عن امتداد ساقيه . رشيقة طليقة كمهر بري .

أقبل على كوبه يرشف منه ، أو ينظر إليه ، منتظراً منها أن تقول شيئا ، فقالت :

ـ كنت محتاجاً للنوم .

ـ حقاً . حقاً ، إنني كنت محتاجاً للنوم .

ـ عثمان أوصاني أن أتركك حتى تصحو من تلقاء نفسك .

ـ شكراً . أين عثمان ؟

ضحكت وقالت .

ـ اين ؟ . . في شركة التأمين طبعاً .

تتكلم دون جهد ، وتنقر الخشب ، وتبتسم .

ـ أنت تحب النوم مثل مقبل .

وثبتت فيه نظرة فكأنما تدق مسماراً . تسره الملاحظة ، ولكنه مضى مع خيط الحديث .

ـ مقبل ضعيف البنية ، لماذا؟

ـ ممكن أن الحليب لا يناسبه ، جربت كل الأصناف التي في السوق دون فائدة . مشكلة .

ـ ولكن لماذا ؟

تساءل بحماس .

ـ لماذا حليب السوق؟ حليبك انت اكثر فائدة له .

ـ أبوه يريد أن أوفر حليبي .

ونظرتها تدق مزيداً من المسامير فتساءل كأنه غاضب :

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أدري وجّه له السؤال .

وقفت وهي تسقط ابتسامة حادة ، وانحنت على الكوب ثم

قالت :

ـ حمامك جاهز .

وخرجت تنقر الأرض ، فيما هو يتساءل ما الذي يمكن أن يدور في رأسها الجميل .

(٥)

النار تهدر في موقدها الداخلي ، وهو يوازن صنبوري الماء . لا يريد ماءً حاراً ولا بارداً ، وهو يعاود الاسترخاء في الحوض ، الذي يستعصي لونه على أن يسمى . لا هو بالزهري تماماً ، ولا هو بلون الخوخ ، هو لون بينهما .

لا . إنه لا يريد لسعة الحرارة هذه . ويفتح صنبور الماء البارد . ثم إنه لا يريد ماءً فاتراً ، ومن الصعوبة بمكان أن يجد درجة الحرارة المناسبة .

في الوقت نفسه ، هو مشغول بقطعة الحرير الصغيرة المثبتة فوقه على مشجب ذهبي اللون . وفكر بها المرة تلو المرة . إنها راية تطل عليه ، ومع ذلك فهي ليست أكثر من قطعة حريرية سوداء .

لم يكن السجين يعرف أن درجة الحرارة الضائعة ، والتي يحاول عبثاً أن يصطنعها ، هي ٣٧ مئوية .

إن الحوض أملس تماماً ، وصنبوري الماء طوع يده ، وهو متمدد يحلم بأن يرتاح ، هذه الفكرة الصغيرة (أن يرتاح) تستولي على خاطره ، وهو يجاهد عبثاً ليحققها .

ليس هذا تماماً . بل جسمه النحيل المعذب في الحوض ، تحت لسعة الحرارة العالية ، أو قرصة البرودة . . أو فتاخة الفتور . وتلك القسوة! الراية القاسية . بل القسوة في هذا كله .

من أين له ان يعرف بأن درجة الحرارة ٣٧ مئوية ، هي تماماً ما ينشده . وهب أنه عرف فما الفائدة؟ إنه لن يصطنعها في هذا الحوض ، مهما حاول . لا . إن السجين مبلبل .

ليكاد الآن ينسى كل شئ عن عالم السجن الذي خلفه ،ليكاد لا يصدق أنه كان هناك يوماً . ومع ذلك ، فإن غيثاً بليداً يطبق عليه ، وهو لا يعرف على وجه التحديد شيئاً من امره . كدخول خنجر خاطف . ثم من جديد تلك البلادة ، والماء الذي لن يكون في درجة الحرارة المطلوبة .

إن هذا بمجمله لا يعجبه ، وهو على غير وفاق مع نفسه ، فاقتطع الاسترخاء غير المريح ، وراح يجفف جسمه ، شاعراً بنوع من الإشفاق يجتاحه . إشفاق ينصبّ في الحقيقة على جسمه النحيل .

ابتسم بحزن ، وهو يرتدي الملابس المستعارة من عثمان . ملابس فضفاضة ، تنثني حول جسمه ، وتتركه وحيداً في الداخل .

قالت له عندما خرج :

ـ نعيماً .

وقال لها :

ـ شكراً .

غير أنه اشاح بوجهه . إنه الآن متعب ، ولا يريد أية ابتسامات قاسية . ولا يريد أن تدق في جسمه مسامير أخرى ، إنه رجل متعب ، ولا شئ آخر واتسع في روحه شعور بالإشفاق على نفسه داخل تلك الملابس المستعارة الفضفاضة .

وقالت له :

ـ الإفطار جاهز .

رمق تلك الصحون الزجاجية البيضاء . ثمّ هناك بيض دجاج مقلي . بيض غنم مقلي ، لبن أبيض ، جبنة بيضاء ، إبريق زجاجي

أبيض يتصاعد منه بخار الشاي . وكاسات زجاجية فارغة .

ومازال هناك هرم التفاح الموضوع منذ البارحة . أية بارحة؟ بل هي ليلة بعيدة جداً . هرمالتفاح منقوص حبة أو اثنتين . هما أكلا التفاح البارحة . أما هو فظل يعتذر . إن هذا كله لبعيد جداً عن ذاكرته .

يجلس إلى المائدة ، يأكل ببطء ، ويشعر باللقيمات تعبر بلعومه دون راحة .

ـ ما بك ؟

تسأله وفي عينيها طيف تلك الابتسامة الدائمة .

وهو يتساءل لماذا يجب أن تكون الامور هكذا ؟ ابتسامة يقظة ، فيها قسوة لا يريدها كقسوة ، راية الحرير السوداء فوق مشجب ذهبي . ولماذا ؟ لماذا ؟

كان السجين مرنحاً بفكرة النوم . ليس النوم تماماً ، بل أن يسترخي ويرتاح .

ـ لا شيء . . لا شيء أبداً .

يجيب السجين . وحقاً ليس به من شيء ، بل هو فقط يريد أن يرتاح .

ـ لا . . أنت حزين .

كأنه رُكل وهو يسمع ذلك . وفيم . . نعم فيم التشفي؟ إنه متعب ، ولا يريد أن يؤذي أحداً . ويا لها من مفارقة ، بين ابتسامتها المشهرة ، وهذا الرجل الذي لن ينازل أحداً لأنه . . لأنه تعس ويود أن يرتاح . بيض ودجاج مقلي ، وبيض غنم مقلي . وكل تلك الجهارة المضنية ، مع أنه لا يريد أن ينازل أحداً .

وقالت له :

ـ أنت لم تأكل شيئاً . هل أنت خجلان؟

وقال :

ـ أبداً والله . أكلت حسب شهيتي .

ـ لا يعجبك أكلي؟

فقال :

ـ لا والله . . بل أكلت على قدر شهيتي .

هل أكل حقاً على قدر شهيته . . أم أن طعامها لا يعجبه؟

هو لا يعرف . حريّ به أن يأكل بإقبال عظيم . من المؤكد أن بيض الدجاج وبيض الغنم عندما يقليان ليسا بالوجبة الفقيرة .

كانت هناك البيجاما البيضاء ، ذات النجوم المرشوقة ، تبتسم وتسأل ، ليود هو أن يعرف ما باله هكذا ، عازف لا يريد الطعام .

لا . إنه حقاً ليس بحالة طبية . لماذا؟ ليس يدري تماماً ما الذي يسوؤه ، ليته يدري . بل يمضي إلى المغسلة غير بهيج النفس ، وينظف يديه ، مع أنهما لم تتسخا ، ويؤوب في هذا اللباس الغريب الفضفاض ، ولا يدري تماماً ما الحكاية .

من سجائر عثمان يخرج واحدة .

ـ ممكن؟

يسأل بغصة ، فتجيب بهدوء متمعن .

ـ تفضل .

ويشعل سيجارته ، ويضطجع على الأريكة الطويلة يدخن .

بليداً ، وذلك الغبش يكتنفه يدخن ، ولكنها طليقة تذهب بالصحون إلى المطبخ . لماذا المطبخ؟ لماذا الصحون؟ . . لماذا؟ لماذا . . لماذا . .؟ لماذا رأس الديك يجب أن يظل معلقا إلى جسده وهو يشوى ، لماذا؟

نعم إنه ذبح وشوي . ما من أحد يغضب . . ولكن . . فقط . . نعم . . إن ذلك المنقار جميل ، ولطيف في الحقيقة ، وهو كان يوماً يصيح عند الفجر ، أو ليس عند الفجر بالضرورة . بل هو ينقر ، ويعلو رقبة زوجته بفرح . . ثم إنه منقار لطيف . . لا . . ليس جميلاً هذا

التشفي . ما من أحد ضد أحد . بل هو ديك لطيف يجب أن يؤكل ، ولو أنك ناقشته الأمر وقلت له :

ـ من الضروري أن نذبحك . . .فكما ترى ان لحمك لذيذ عند العشاء .

مؤكد أن هذا الديك الجميل ما كان ليغضب . . ثم إنه من المؤكد أن المرء لا بد سيذبح يوماً . لا بأس . لا بأس . لا أحد يغضب لامور كهذه . أما أن تذهب لتبول على قبر ميت ، لماذا ؟ لماذا؟

إن السجين لمتعب حقاً . هو يدخن لفيفة لعثمان ، وهو يريد فقط أن يستريح . ثم إنها أكملت تنظيف المائدة . إنها رشيقة ولطيفة . بيجاما بيضاء مرشوقة بالزهر . إن الزهور أصلا لطيفة ، ومن المؤكد أنه في هذا العالم لو وجدت لغة مشتركة بين الزهور والديكة والناس ، لفهم الجميع بعضهم بعضاً ، ولقالت الزهور :

ـ انا سعيدة أن أقطف ، إنني أزين صدر الدار .

وقالت الديكة :

ـ ليس محزناً أننا نذبح . فإن البشر يحبوننا ، ويدعو أحدهم الآخر على وليمة من لحومنا .

وقال الناس :

ـ نحن لا نريد أن نؤذي أحداً . لكن الزهور جميلة ، والديكة لذيذة .

ولربما ضحك الجميع في سعادة غامرة . كان السجين يدخن ويتأمل . ثم إنها عندما فرغت من تنظيف المائدة أتت رشيقة ، وجلست على الأريكة إلى جانبه ، فانسحب يترك لها مجالاً ، وقالت :

ـ شغل البيت أصعب مما يظن الرجال .

اللعنة إذن على ظنون الرجال . فهو لا يقيم كثير اعتبار لظنونهم . بل هو يعطي من حيز راحته مساحة لها ، وهو فرح بهذا .

وقالت له :

ـ ممكن سيجارة؟
فتح العلبة واخرج لها واحدة وأشعلها . إنها جميلة حقاً .
إنها مثل الزهور ، عندما لا تبتسم بشماتة ، وقالت له :
ـ ما أفطرت . . هذا فطور كذب .
قال :
ـ أبدا . . أبدا . أنا أشكركم .
وابتسمت بشماتة ، فحزن هو . ثم ما الذي أدراه ، فلعل كل هواجسه أباطيل . إنه رجل مبلبل ، يصعب عليه أن يطمئن لأفكاره .
وقالت له :
ـ أنت مهموم .
ومدت يدها ببساطة فأمسكت بيده . وكان يعرف أنه مهموم . نعم هو حقاً مهموم . لايدري لماذا هو مهموم إلى هذا الحد ، وقال :
ـ لا أدري! هناك خطأ حولي .
وعادت تسأله :
ـ لماذا أنت مهموم؟
وما زالت تمسك بيده ، وكان ثمة دفء . دفء . . وهذا ما يريده . لا الحرارة اللاسعة ، ولا البرد القارص ، ولا الفتور . بل الدفء . وكانت تنظر بعينين لا أثر للشماتة فيهما . بل دفء ولا شيء آخر .
قال :
ـ أبداً . أنا غير مهموم .
وقالت له :
ـ حرام . . أنت مسكين .

وكان ذلك دفئاً . هو الآن حذر ، وهو يكاد يرتاح . فرفع يدها قليلاً محاولاً تقبيلها ، وهو لا يقصد سوءاً . بل هو يريد أن يكون قريبا ودافئاً . لقد شعر إذّاك بقليل من المقاومة ، وهو يحاول رفع يدها . غير أنه ظل يرفعها ، مؤملاً أنه سيدفأ . وعندما كادت أن تلامس شفتيه ، انتزعت

يدها بسرعة خاطفة مذهلة ، ونأت عنه إلى طرف الأريكة .

فوجئ السجين بهذا ، أطبقت عليه البلادة بشكل أكثر إحكاماً . كان هناك غبش لا يعرف كنهه . كأنّ الساعة وقفت ، وهو لا يدري لماذا . هو لا يفهم . ليس الجو حاراً ولا بارداً ولا فاتراً ، بل غبش بليد طويل . ولا شيء آخر .

ـ ولكن لماذا . . ؟ . . لماذا ؟

البلادة ولاشيء . . وهو يسأل وهي هناك في أقصى الاريكة .

ـ لماذا؟

جر جسده ببطء نحوها . ظلت تنتظر . أخيراً وصلها ، أمسك بيدها . هناك الغبش وبلادة طويلة تمتد حتى آخر الدنيا .

إنه ممسك بيدها من جديد ، غير أنه بعيد ، وزحف بجسمه الصغير زحفاً ، حتى شارف فمه فمها .

وقال لها :

ـ أرجوك .

ولم تكن تبتسم . غير أنها ثبتت عينيها فيه . وهو لا يدري تماماً ما الذي يحدث ، وسمع صوته يقول لها :

ـ أرجوك .

متعباً قرب فمه من فمها . وعيناها انخفضتا تراقبان الذي يحدث . غير أن قلبه يدق منعزلا عنه . دبيب كبير عجب له .

قريباً كان من فمها . يعرف أن عينيها منخفضتان تريانه ، ولم يكن لديه وقت ليشعر بالخزي ، بل كرّر :

ـ أرجوك .

ورمى برأسه محاولاً أن يغمض عينيه .

ـ لا .

سمع صوتها الناشف يقول . ثم أدرك أنها تنسحب بعيداً . وقد

هوت محاولة اضطجاعه . . ولم يعد يشعر بشيء ، بل راقب نفسه منكفئا هناك ، وهي تنسحب إلى آخر الأريكة .

لا شيء دار في رأس السجين . بل جسده انسحب تلقائيا في محاولة للم شعث كل هذه العملية التي شارفت به على الضحك . هذا هو أول ما دار في رأسه : أن يضحك . وهو لا يدري لماذا يجب أن يضحك . ثم إنه لم يضحك . بل جر جسمه الصغير ، هناك حيث كان في البدء . صغّر من جلسته ، وحاول أن يضجع كما كان قبل هذه البلبلة الخائبة . ولقد قدر أنها تراه الآن . تراقب ضجعته غير المريحة ، ومن الممكن أنها تهزأ بهذه الضجعة ، ومحاولته أن يعيد الانتظام لتنفسه . هذه أشياء تفلت من قبضته ، وهو لا يعطيها كبير أهمية . هو يعي أن تنفسه المسموع غير منتظم ، وحركة قلبه تضخ أكثر مما ينبغي ، وكل هذا سينتهي عما قليل . وهو واثق من أن هذه الأعضاء المتحركة في فوضاها ستعود تعمل كالمعتاد . إن إطلالتها من فوقه كما يقدر . وتلك النظرة ولابد! فإنه لا يفهم .

بدلا من أن تتحرك خيوط دماغه بعملها المطلوب . التمعت هناك داخل الجمجمة صورة رأس الديك المطأطئ في المعكرونة ، والفكرة السخيفة نفسها أن ثمة صيحة مجهضة في منقار الديك الذبيح المشوي .

ـ ياله من رأس هذا الذي أحمله .

فكر السجين .

ـ أريد أن أفهم .

والحق أن السجين كان يريد مساعدةً من نوع خاص . الكلمات ، هذا تماماً ما يريده ، أما فوضى تنفسه ، وضخ قلبه ، فهما يعودان تدريجيا للحالة الطبيعية .

ـ نعم ما الذي يحدث؟

الآن سيقصر دماغه على العمل . فليعد إلى تسلسل الامور ، الخروج في وقت غير مناسب . نعم من هنا تبدأ المشكلة . ثم نفض هذا التعثر . فهو قد خرج في آخر النهار ، ولم يكن بوسعه أن يقرر الوقت المناسب ، وما من سجين آخر قرر الوقت الخاص بخروجه . لا . ليست هذه المشكلة تماماً . إذن فاستقبال عثمان له . هل كان عثمان مبتهجاً به؟ هل كان مهتماً كما بدا له؟ إذن لماذا لم يبتهج هو . ألا تنقر الفرحة في القلب على القلب الآخر؟

ثم الباب المفتوح ، والفستان الأسود الذي يتحرك بنمنمة . . ماذا ظن؟ احتفال خاص به؟ لماذا فكر أنه سيستقبل باحتفال خاص؟ ومن هو ليستحقه؟ نعم . . ولكن ديك كبير مشوي ، أليس له . وهرم من التفاح ، و(كأنك في بيتك) . . ليس له بيت . . نعم لا بيت لديه . فكيف سيشعر إذن؟ ثم . . نعم . . ماذا؟ ثم الحقيبة؟ أين الحقيبة؟

ـ أين حقيبتي من فضلك؟

ـ تريد منها شيئاً؟

مازالت تملك صوتها تماماً . . أما هو ، فلقد أصدر السؤال نغمة أقرب إلى أن تكون سعالا . تسأل وترمش بتلك الابتسامة .

ـ أريد أن أطمئن عليها .

ـ ما بها شيء تخاف عليه .

ـ إذن فانت فتحتها؟

ـ مابها شيء مهم .

يطلق تنهيدة أقل بلادة من كل حركاته . ولكنه يشعر بالخزي . إذن فقد فتحت الحقيبة لتعرف أن ليس بها شيء مهم . إنها حقيبته على كل حال ، ولا يريحه أبداً أن يفتحها أحد ، ولا سيما هي . إنها حقيبته . وإن هذا لكثير . ما من سجين يحب أن تفتح حقيبته .

ـ هل تسرّين لو أن أحداً فتح حقيبتك؟

وهذا الصوت المتسائل الآن به رنة غريبة . صوت عاتب . . بل أبعد من العتب .

ـ هل تريدين؟ قولي . . هل تريدين أحداً يفتح حقيبتك ويطلع عليها؟

ولم تجب .

ـ وسواء كان فيها شيء مهم أم لم يكن . . هبيها حقيبة فارغة تماماً . فهل تودين أن تفتح حقبيتك؟

وهو لا يراها بوضوح . ولا بد أن غشاوة ما تغطي عينيه ، بل هي حقيقة أن في عينيه دموعاً تولد .

ـ لماذا؟ يا الهي . . لماذا؟ لماذا؟

قبضتان مشدودتان أهوتا على الاريكة ، فلم تصدرا غير صوت استجابة الاسفنج . فألقى برأسه ، وسمع نشيجه ، وهو بعد يحاول ، أن يلقي سؤاله . . ما الذي بعد يلح عليه ليظل يسأل من خلال النشيج؟

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

وأحس بثقل فوقه ، وبيدين تحيطان بصدره ، وصوتها :

ـ أنت زعلت مني . انا متأسفة . . ما كنت أقصد . .

ليود أن يذهب الثقل ، وألا تحاول اليدان رفعه . فكما بسكين حادّ قطع نشيجه ، حتى نشيجه غير مستكمل .

فمهما يكن ، لقد أحب أن يظل ينشج بضع دقائق أخرى على الاقل . أين ذهب النشيج؟ إنه يرفع كما كيس من الدقيق ، تجرّه وتسنده على عظام صدرها ، وترفع ذقنه بيسراها ، لتطل بعينين مخفضتين ، وتقول بصوت خافت :

ـ لا تزعل مني .

وتنقر خدّه بإصبعين ، فلا يصدر خده صوتاً . أما خشب السرير ، فقد كان يصدر صوتاً حين تنقره .

ـ تبكي من أجل حقيبة ليس بها شيء مهم؟
وتمر بيدها على ظاهر عنقه .
ـ لا أحد يريد أن تفتح حقيبته في غيابه .
واستهجن هذا الصوت الطفولي على نفسه . إنّه لا يريد أن ينتزع من على صدرها مع أن هواجسه أرادت لرأسه راحة أفضل من هذه . ليت أن كل شيء أفضل . غير أنه يريد هذه ايضا .
ـ طيب . . وأنت؟ ألم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه . . هل ترى؟ كلنا نفعل الشيء نفسه . لقد شعر بضغطة يدها الخفيفة جداً فيما هي تسأل :
ـ أعمل لك فنجان قهوة؟
ضغط يد تقترح عليه أن يقطع اتكاءته على صدرها ، فاستجاب بسرعة خاطفة وفكرة العار تلهبه مرة واحدة .
ـ فنجان قهوة شيء جميل . جميل جداً .
انتفض واقفاً وهو يطلق ضحكة مقطوعة ، وطوّح بيده في الهواء .
ـ لو كنت أدري أن فنجان قهوة يرضيك لهذه الدرجة لعملت لك عشرة .
ـ يرضيني؟ . . طبعاً . يا إلهي ، ما من شيء يرضيني قدر فنجان قهوة . فنجان لا عشرة . إنني أكتفي بالقليل عادة .

خفّت إلى المطبخ ، وهي تفكر أن أمراً غريباً قد طرأ على الرجل . ما الذي جد عليه؟ يتحرك بها شوق لأن تفهم . سمعته يطبق باب الحمام ويرتجه . وتخيلت مسيرته عبر الامتار القليلة ، ثم هو هناك . إن بها لفضولاً حول ضحكته الغريبة ، وهو يثير كل تلك الضوضاء حول فنجان من القهوة . ما أغرب الرجال!

لم يكن محتاجاً لاستعمال الحمام . إنه يريد أن يخلو لنفسه هناك ويفكر . به حاجة ماسة لأن يفكر ، وهو يشعر براحة ومقدرة على

العمل الذهني أكثر مما في الصالون ، نعم إنه جالس يفكر .

ـ ألم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه . . هل ترى؟

قلب السؤال مستحضراً لهجتها وعينيها ايضا ، واستعاد لمحا من الحوادث التي أطبقت عليه . وعرف أنه الآن أبعد ما يكون عن السجن . إن عمراً قد راح منذ غادره . ضجعته في الحوض ، وقطعة الحرير المتروكة على مشجب ذهبي ، ورغبته في ماء ذي حرارة لا باللاسعة حراً ولا برد . وهي تتحرك في مجال عينيه . واستعاد جملته (زنبقة سوداء مضمومة ليلا قرنفلة متفتحة في الصباح) وهز رأسه مبتسماً . . وأخيراً أخيراً جداً .

ـ أنت ألم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه . . هل ترى؟

إنه يرى زوجة عثمان . . لم يفكر بهذا ، بل فكر بالزنابق السوداء والقرنفل . ياللخاطر السخيف!

وضحك لنفسه ضحكة صغيرة . ليست هي غادة ، ولا زنابق وما شابه ، بل زوجة عثمان . هذا هو الأمر الضائع . حلقة مفقودة فهو لم يفكر بشيء حول عثمان . وببساطة فقد كان عثمان غائباً عن ذهنه تماماً . لم يرد أن يقبل زوجة عثمان بل أن يقبلها هي ، ما هي الكلمة؟

(زوجة فاضلة) .

هذا ما يسمون المرأة في حالات كهذه . يا له من تعيس . والآن عليه أن يعيد ترتيب الأحداث دون زنابق . هو رجل خارج من السجن . عثمان موظف في شركة تأمين ، عثمان متزوج من هذه المرأة ، بدليل أنهما أنجبا مقبلا . يا لذلك المقبل الفظيع . . لماذا يدخر أبوه حليبها؟ لعنة الله عليه ، رجل بتلك البزة الجميلة يستطيع أن يشوي ديكاً مع رأسه ، ومع ذلك يقتات بحليب مقبل؟ عثمان الذي انتظره على

باب السجن . عثمان النظيف الذي سيوظفه في شركة التأمين ، هذا العثمان نفسه ينجب طفلاً كالسحلية ، ويشرب حليبه! (ياترى كيف يشربه ، مباشره مثل جدي من ثدي الماعز أم بفنجان!) .

زوجة عثمان إذن . ولكنه يريد أن يقبل . . آ . هو سيتدرّج من موظف جوّاب حتى يصل إلى مركز عثمان ، ثم يأتي بزوجة خاصة به ، وينجب طفلاً . لا يريد سحالي . لا . لا مزيد من السحالي ، هو لا يحبها أبداً . إذن فالمشكلة التي استعصت عليه فقط هي أنها زوجة فاضلة .

الآن تنتهي المشكلة . ليته يكشف الكلمات المناسبة فور تورطه في المشكلة ، إذن لوفّر على نفسه تلك البلادة والارتباك والفوضى . . إن المسألة في منتهى الوضوح .

سمعته يغسّل ، فيما هي تحمل صينية القهوة ، خارجةً إلى الصالون . غريب ان يفتح صنبور الماء على آخره .

ذهبت ووضعت الصينية على الطاولة ، وظلت واقفة تنتظر حتى خرج ، انعطف يساراً إلى البوفيه ، والتقط حبة تفاح حمراء وقضمها . هذا أيضاً سلوك غريب منه .

ـ هل تريد تفاحة؟

باغتها :

ـ لا ، شكرا لا أحب التفاح كثيرا .

اجابت بقلق :

ـ معك حق ، فرغم أنه أحمر لامع لكنّ طعمه مزّ .

ابتلع قضمته ، وأتبعها باخرى .

ـ ولكنك تأكله .

ـ لا بأس بقضمة أو اثنتين . ليس أكثر . طعمه لا يشجع . ما الذي يحدث للرجل . إنه يتحدث عن تفاحها بهذه الطريقة الوقحة . حقاً إنه وقح . . والغريب أن يحدث هذا التحول بغتة . تود أن تصفعه

وتركله خارج البيت .

ـ سبق لك أن اكلت تفاحاً ألذ؟

تسأل بعصبية .

لقد ألقى بقية التفاحة ثانيةً إلى الكومة وقال :

ـ لا .

ـ إذن فكيف تعرف أن طعمه مز؟ لم تذق أحلى منه .

سار السجين إليها بثبات وقال :

ـ بوسعي أن أقدر كيف طعم التفاح الجيد ، ومع ذلك أكلت قضمتين . أنا لا أرفضه .

كرر وتقدم خطوة أخرى ثم وقف . تنظر إليه كنمرة صغيرة وتعبق برائحتها . الرائحة التي أرهقته ، تملكته رعشات مباغتة ، وعلا دبيبُ قلبه . ليست مشكلة الدبيب فقط ، بل إن أسنانه تتصادم ، وتنفسه يعلو أشبه بصوت منفاخ ، حاول أن يضبط فوضى أعضائه بينما هي مائلة مرشوقة بالزهور تبتسم بشماتة .

ـ الآن .

قال لنفسه .

وبلمحة جرى الأمر .

رفعها ، وحرّر نصف جسمها بضربة عنيفة . طوّحت بساقيها في الهواء وهي تقول :

ـ لا . لا .

الشقاء يناوشه ، وهي تضطرب بين يديه وتدفعه . رماها على الأريكة ، وأحكم قبضتيه في جسمها وهي تقول :

ـ لا .

ليته لا يرتقص بهذا الشكل الشنيع . إن موجة داخلية من الحرّ تجتاحه . انحنى مغمض العينين . ومسح وجهه بعريها وقبلها ، وهي تقول :

ـ يجوز أن يجيء عثمان .

لم يتكلم بل أحكم قبضتيه فيها وقبلها ، دون أن يعرف تماماً أين تسقط قبله .

ثم ارتاحت قبضتاه قليلا . حركتها بدأت تتضاءل إلى أن هدأت تماما ، وخيّم الصمت . فمرّر وجهه على امتداد عريها ، وهو بعد مغمض العينين . ورفع رأسه فألفاها تنظر بهدوء وقالت بلهجة مختلفة .

- يجوز أن يجيء عثمان .

فقال بتقطع :

- لاتخافي .

وود لو أنه لايضطر للتكلم ثانية ، وقفز متحرراً من نصف ملابس عثمان ، واحتوى جسدها الهادئ ، ودفن رأسه في رقبتها .

ابداً لم يمسك قط بشيء ، مثلما ينشب أصابعه في كتفيها ، ولم يحدث أن اضطربت روحه كما الآن . إنها توشك أن تظفر من حواف جسده . يريد أن ينادي بأعلى صوته . لربما ينادي باسمها وعظام جذعه تطقطق بألم حادّ ، فود لو أن جذعه يتكسر ويذوب .

ثم سكن . كانت مسامه قد تفصدت عرقاً وقبّل باطن رقبتها بهدوء ومسح وجهه هناك ، ثم سمع صوت تنفسها منتظما فاشتاق أن يراها .

رفع نظرة مجهدة ، واذا بها تطلّ فوقه . عيناها مفتوحتان تراقبانه . لا ابتسامة ولا غضب ، بل محض عينين مراقبتين . واجتاحه شعور بالبؤس والعار . إذن ففيما هو يرتقص بتلك الفوضى المزرية من أنفاسه ، وفيما أصابعه تتشبث ، ظلت ترقبه بعينين مفتوحتين ، وكل ما فعله لا يعدو أن يكون وصلة تهريجية . وصلة فاشلة في الحقيقة . يا لجسمه الصغير المهان ، هو البهلوان الصغير الذي لا يريده أحد .

وجوعه وتوقه للنداء ، وعرقه المتفصد ، كل ذلك لا يعدو أن يكون كذبة صغيرة وسخيفة . ولكن . . هذا الجسد له رائحة ، له نعومة

لا يمكن أن يكون كذبة . إن بوسعها أن تكون ليمونة ، بل وأجمل ، فلماذا؟ . لماذا؟ . .

ـ أنت تعبان؟
ـ . . نعم كثيراً . . لم أنم ليلة البارحة .
ـ هل الفراش غير مريح .
ـ لا ليس الفراش . . الفراش مريح . . الكوابيس فظيعة ومرهقة .
ـ كوابيس؟
ـ رجال ونساء من البلاستيك .
تضحك .
ـ حقيقةً ، رجال خبثاء كلهم من البلاستيك ، ويظهرون كأنهم ناس من دم ولحم .
ـ لماذا؟
ـ لا أدري عندما أراهم يتظاهرون كالناس ، وعندما لا أراهم يعودون بلاستيك .
تضحك .
ـ هل يجب أن تكون حزيناً؟
ـ نعم أعتقد يجب أن أكون حزيناً .
ـ وما الذي يحزنك؟
ـ رائحتك .
تضحك .
ـ تحب العطور الغالية؟
ـ لا ، لعنة الله على العطور الغالية .
ـ كسروا أسناني ، وأرادوا أن يخنقوني .
ـ من أراد خنقك؟
ـ الكوابيس .
ـ لا تحزن .

ـ لن أحزن ، إذا كنت حقاً تريدين ألاّ أحزن .

ـ أريد .

ـ أنت جميلة . . لا تكوني بلاستيك . . ما الفائدة؟

ـ لافائدة منها . . لاشيء أبداً .

ـ إذن!!

ـ أحياناً . .أحياناً يكون الأمر لذيذ جداً . . أعني البلاستيك .

ـ والآخرون؟ . . أعني لا يعرفون .

ـ لا يعرفون . . ألا تحب عثمان ؟

ـ لا أظن أني أحبه . . لا أستطيع . . أنا آسف .

ـ لا تأسف .

ـ أريد أن أحبه صدقيني . . ولكن لا أستطيع .

ـ لا تأسف . . لا أحب أن يظل عليك شيء من ملابسه .

ـ سأخلعها . . سأخلعها حالاً .

ـ مسكين . جسمك صغير جداً وأنت عار .

ـ يجب أن تحبينه .

ـ أحبه . . . أنا أحبه .

أكمل إطلاق أزرارها . حملها وديعة بين يديه ومر بيديه ، على نعومتها . بتلات سوداء بليلة . زهرة في كأسها . أضمومة سوداء هناك . امرأة عارية .

قالت :

ـ أنا سعيدة .

أدار كفه على عريها ، وألفى أن جذعها ناعم ولكن متين .

قال لها :

ـ أنت طيبة كالثمرة الجيدة .

وقبّلها في كل جسدها ، وهي أدارت كفها على عريه ، وساعدته في رحلته .

ـ أنت حلوة اكثر عندما تغمضين عينيك . . كم أنت كريمة !

قالت :

ـ كما لو كنت في أرجوحة .

واستقبلته باحتفال واسع دافئ ، مدارجها تموج ، وموسيقى خفية تصدح .

أطبق كل منهما عينيه ، وتركا لأرجحة المياه الدافئة أن تتم هذا الطقس ، أرجوحة طليقة تشرئب إلى الأعالي ، وكانت زرقة البحر وحشية ، وكان للبحر غلاف أبيض كبير ، فأقبل يركض واحتواهما ونقرهما بفرحٍ عظيم . فكأن صياحه يوقظ فجر الأرض الأول . كان الرجل متحداً بالمرأة ، والمرأة متحدة بالرجل ، مثل فلقتي حبة قمح .

هنــدي أحمــر

هندي أحمر

أنا فتى أهوج سريع الانفعال ، أحب النساء ولا سيما البيضاوات . وفي طفولتي كنت أربّت على القطط البيضاء ، وألقي خطباً على الثلوج . أما أن يلوح حمار أسود أو كلب أحمر فالويل كل الويل .

كان أبي اقطاعيا عابثاً ، كثيراً ما يترك الأطيان ويصطحبني إلى العاصمة حيث لا نفعل إلا ملازمة صالات السينما نشاهد أفلام الهنود الحمر . ويا لها من ضوضاء تلك التي نثيرها عندما يشد الهنود وثاق المرأة البيضاء ويهيئون القدر لطبخها ، أروح أزمزم وأمأميء ، وأبي يلوّح بطرف عباءته متحمساً للبطل الأبيض الذي يعدو لنجدتها .

ـ أيوه النشمي .

يصرخ أبي :

ـ عفيه عليك . أخو أختك .

والبطل يجندل الهنود واحداً تلو الآخر .

ـ إخسَوا . . إخسَوا!

يندد أبي بالهنود التعساء ، والناس ينفضّون من حولنا ، وأبي لا يبالي . يقسم أبي ونحن نغادر الصالة أنه سيزوجني واحدة أمريكانية ، لو أمدّ الله في عمره ، وعندما تستخفه الحماسة اكثر يعدني بأربع زوجات منهن دفعة واحدة .

ما ألذها من أوقات بصحبة والدي الطروب ، غير أن القدر كان يترصد مسراتي ، إذ دقّ الله عنق أبي في عهد ميلاده المئوي الاول وخلفني يتيماً وحيداً إلاّ من أمنية ظلت تراودني ، وبضع آلاف من

الدونمات صفيتها سريعاً ، ونشرت نعياً مناسباً في الصحف تحت عنوان (زهرة تذبل) ، وأشرت إلى مائة عام أمضاها في أعمال البر والتقوى ، وانتقل بعدها إلى جنان الخلد . ثم شددت الرحال إلى بيروت أبحث عن زوجات لي ، وقد بلغني أن الأمريكانيات متوافرات هناك .

تباركت يا خالق بيروت ونساء بيروت . أقسم أن الحليب يخجل من لونه في بيروت . تلك الفساتين القصيرة كثيرة الفتحات من حيث تتسلل نظراتي ، ويرتكب شيطان خيالي الفظائع ولا أحد يحاسبني .

ـ قوم ممتازون! قوم بيض! قلت لنفسي . ولكنني لا أفهم عليهم . هذه مشكلتي أنا . تعساً لي ما أحمقني . كيف تراءى لي أن أتزوج أمريكانيات ، دون أن ألم بكلمة واحدة امريكانية!

وهكذا استرقت من ساعات السينما والبصبصة وقتا لمعهد اللغات . وكان أشق الأوقات على نفسي وأبغضها . وبعد طول مثابرة قال لي البروفسور :

ـ مسيو . لا تغلب حالك . عمرك ما بتتقن لغات أجنبية .

فودعت المعهد حزيناً ومعي قائمة ببضع كلمات بسيطة قال لي البروفسور أن أدوام على مذاكرتها لعلها تعلق في ذاكرتي وتفيدني ، وتمنى لي زواجاً سعيداً .

في هذا الوقت العصيب التقيت بالدكتور مهمد سميث . كان ذلك في صالة سينما طبعا . الفيلم ليس عن الهنود الحمر بل كان عن الكوريين الصفر . . لا يهم . الويل الويل ما دام أن الضابط الابيض متورط يكاد يسقط في الفخ المبيت .

استمراراً لتقاليد الأسرة رحت أصدر تلك الأصوات البدائية ،

وألوّح شاتماً محذراً ، وأتهدد الكوريين بسوء العاقبة . ولا بد في حمّى جلبتي قد أصبت عين جاري بسوء فقال :

ـ مسيو خليك رايق شوي .

صرختُ ساخطاً

ـ مسيو أنت كوري أصفر

قال بلهجة رقيقة :

ـ باردون مسيو . . لا مش ممكن .

رب صداقة حميمة بعد شجار . لقد غادرت السينما متأبطا ذراع زوجته البيضاء التي ما فتئت تزقزق بما لا أدري غير أنني أهز رأسي موافقاً .

ـ وي مدام . يس يس يس .

أفادني الدكتور مهمد بعد أن جلسنا في مقهى على الروشة أنه أستاذ يدرس مادة الأنثروبولوجي في الجامعة وانزلقت متسائلا :

ـ يعني ماذا يا دكتور؟

ـ أوه!

قال الدكتور :

ـ التراديشنز والكوستمز ، يعني الناس .! يو سي؟

ـ أوه!

أجبت متذكرا :

ـ يس يس يس .

وسألتني زوجته :

ـ المسيو من وين؟

ففهمتُ هذه وقلت :

ـ انا من الأردن .

ـ أوه مهمد . . ريفيوجي .

خاطبت زوجها وهي تربت على خدي كما لو أنني كلب محبوب .

ـ اوه . . ييه . . الأردن بلد أبضاي .

راح الدكتور مهمد يهز قبضته الحماسية فأصاب الجرسون الذي يطل محملا بالكباب والمازات العظيمة ، فضحكنا وضحك الجرسون وكان الجميع سعداء .

وما أن أفرغت الكأس الثاني إلى جوفي حتى اعترتني النمنمة المعهودة ، وراحت عيناي تتسللان عبر فستان المسز سميث . . بيضاء! بيضاء! ولكن لغيري . آن لي أن أنهي مسألة زواجي وأعود للوطن .

ـ أوه . . ذات إز فيرا .

باغت الدكتور مهمد تأملي .

ـ أند هنان .

لوحت مسز سميث وهي تزقزق .

ـ جوين أص .

يا لتعسك يا فتي . فالبنطال البرتقالي أيضا عظيم . . كل شئ عظيم على النساء هنا . . وحق الشيطان لا يسعك الاختيار بين واحدة منهما . فلتكن كلتاهما اذن . بنطال برتقالي وميني اخضر هذا ما تحتاجه .

ـ هابي برؤياك .

قلت لفيرا متفحصا بنطالها .

ـ هابي إني أشوفك

قلت لهنان متزحلقا على ما تحت الميني .

وقدمني الدكتور مهمد :

ـ مستر ألي من الاردن .

وحق السماء إن هذا الإسم أجمل من علي .

زقزقت العصفورتان فرحتين بي ، وجلسنا سعداء نتحدث ونشرب

مزيداً من العرق .

ـ ليبرتي .

صرخ الدكتور مهمد .

ـ هذه هي صيحة العصر ، وكل الأفكار الثانية كلام فالصو .

ـ وي . وي .

أجبته والتهمت ملعقة اخرى من الكبة النيئة قدمتها مسز سميث

ـ اذن المسيو من الاردن ؟

سألتني فيرا البرتقالية .

ـ وي . مدموازيل . يس .

اجبت وتمنيت لو أن بروفسور معهد اللغات الأخرى يرى تقدمي السريع .

ـ أوه . . . هاو بور!

قالت هنان الخضراء .

ـ وي مدموازيل ، وي .

ـ الأردن! هاو بتي . . اعتداءات ويمبز .

فهمت هذه فقد كانت أمي تسمي القنبلة بمبه فقلت :

ـ يس . يس . بمبز كثير .

شَرقت بجرعة ضخمة من العرق ، ورحت أسعل وأنفث ، وروحي تكاد تفارق ، فهبّ القوم البيض لنجدتي .

ـ استعمل كلينكس .

قالت فيرا .

ـ فاين أحسن .

قالت هنان .

ـ الجنتلمن يفضلون فاين .

قالت مسز سميث .

ـ نثنج بت ذا بست : تمبو .

قال الدكتور سميث . . وأيديهم تمتد عارضة تلك الأوراق الملوّنة والدمع يطرّز عينيّ وأنا أجاهد لإبقاء روحي ضمن بلعومي . فوقفت أخيراً وعاودت جلستي بين ضحكهم المتصاعد . لم يعجبني هذا الضحك في غير أوانه ، فبدأت أرتاب بنيّات جلسائي .

استأنف النسوة إلقامي الكبّة النيّئة والربت على جسمي مرددات : هاوبور ، هاوبتي!

وأنا لا أفهم المقصود تماماً ، غير أنني انكمشت مثل قنفذ حزين ، أسمع ضحكهن ، وأصلح من هندامي .

ـ لكنّ شعب الأردن كله أبضايات .

قالت فيرا

ـ معلوم . . البدو كلهم أبضايات .

قالت هنان .

والتمعت عينا الدكتور سميث فقال :

ـ شعب الأردن كله غوريللا .

وهنا هاج جنوني ، فوقفت محتداً

صرخت به .

ـ أنت فهمان غلط . . غوريللا بالامريكاني يعني . . قال الدكتور وقاطعته : هست يا دكتور لا تقل غوريللا أبداً .

ـ كريزي . سوفاج .

ولولت الحريم وهن ينظرن إلى يدي . كنت قد نسيت السكين دون قصد فطاف بذهني هاجس أن أطبخهم في قدر ضخمة .

ـ هست ياحرمة . . أنت وهي وهو . . هست اوهو هاييه . وقذفت سكيني فنشبت واقفة بخشب الطاولة ، وراح البيض يتدافعون بغير انتظام ، وأنا أحملق بالدكتور سميث ، مستعداً لأن أطبخه ونساؤه في قدرة واحدة ، لكنه لاذ مندفعاً ، وكنت متخماً تماماً فقررت تركهم .

وأنا أغادر المكان خفيفاً لاح لي أبي مبتسماً وقال :

ـ الدنيا سينما يا ولدي . . سينما!

ـ وأنا هندي أحمر يا والدي .
قلت له .
ـ أنت رأس فارغ دون مخ ، تماماً مثل أمك .
قال لي ، فسألته عرضاً :
ـ هل تقضي وقتاً طيباً عندك ؟
فأجاب :
ـ الجو حار جداً هنا . ولكنني ألهو .
ـ يالتعس مصيرك ايها الشيخ ـ ولكن ما الذي فعلته بلحيتك الطويلة ؟
ـ أحرقوها بالصحيفة التي نشرت عن أعمالي في البر والتقوى . . اللعنة عليكم وعلى صحفكم . . من كلّفك بهذا الهراء يا ولد؟
ـ جميعهم يكتبون هذا ، ماذنبي .
ـ وتحرق لحانا هنا بالصحف نفسها . . هذه عقوبة إضافية تحل بنا ، أخبر أهل الدنيا بهذا .
ـ سأفعل . سأفعل . قل لي ما هي مشاريعك للمستقبل؟
ـ سأتزوج .
لوّح لي مبتسماً .
ـ حتى في جهنم ؟ ومن هي تعيسة الحظ ؟
قلت مستغربا :
ـ امرأة هائلة اسمها مارلين مولرو .
ـ مونرو . أيها الشيخ الجاهل .
ـ مونرو وليست مولرو .
ـ عجيب .
قال الشيخ وضمّ يده ظاناً أنه سيمسك بلحيته فأمسك بالفراغ .
ـ ما العجيب؟
سألته .
ـ عندنا واحد مزعج يظن نفسه رئيس أمريكا ، واسمه مونرو . .

ويطالب برئاسة جهنم ـ إنه يغلب العفاريت هنا . . قل لي هل هو أبوها؟

سألني الشيخ وغمز بعينه .

ـ لا أدري . لست مطلعا على اسرار القوم . ولكن ما بالك لا تقع الا مع الامريكان ؟

ـ يعجبونني . . لطفاء وبيض . . بيض جدا .

فقلت له :

ـ يا لكم من شلة جهنمية يليق بعضكم ببعض . أنا هندي أحمر .

قلت له وكرّرت : هندي أحمر!

ـ أنت رأس فارغ دون مخ ، مثل أمك .

ذكّرني الشيخ ثانيةً وغمز مودعاً :

ـ الدنيا سينما . باي باي .

ـ وعليكم السلام أيها الشيخ العابث ، ألهُ جيداً .

كنت أعبر شوارع بيروت ورأسي يدور بشدة . في طريقي إلى مكتب السفريات رأيت محلا لبيع الدجاج . مددت يدي من خلال قضبان القفص وانتزعت ريشة من ذيل ديك راح يتصايح . شبكت الريشة في شعري الكثيف ومضيت أختال كهندي أحمر .